ولكن ليسعهم منكم
بسط الوجه وحسن الخلق

ونعمة الذرية الصالحة

جمع وترتيب
من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله تعالى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

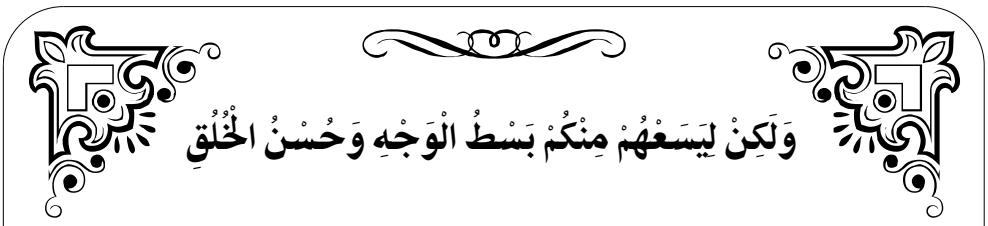

وَلَكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ

فَإِنَّ الْخُلُقَ وَالْأَدَبَ عُنْوَانُ فَلَاحِ الْمَرْءِ وَسَعَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا اسْتُجْلِبَتِ الْخَيْرَاتُ بِمِثْلِ الْخُلُقِ الْفَاضِلِ وَالْأَدَبِ الْكَرِيمِ.

وَالدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟».

فَقَالَ: «**تَقْوَىٰ اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ**»(١). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُسْنَ الْخُلُقِ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَرَنَهُ بِالتَّقْوَىٰ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ وَصِيَّةٍ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنِ

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»: كتاب البر: باب ما جاء في حسن الخلق، (٢٠٠٤)، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد: باب ذكر الذنوب، (٤٢٤٦).
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ»، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة»: (٢/ ٦٦٩، رقم ٩٧٧).

(٢) «الفوائد» (ص: ٧٦) طبعة. عطاءات العلم.

الْخُلُقِ؛ لِأَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ تُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَتَقْوَىٰ اللهِ تُوجِبُ لَهُ مَحَبَّةَ اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ».

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»(١). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

فَكُلَّمَا كَانَ الْمَرْءُ أَحْسَنَ خُلُقًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِهِ، وَكُلَّمَا كَانَ أَسْوَأَ خُلُقًا كَانَ أَبْعَدَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ**»(٢). رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

أَيْ: لَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ عَطَاءً وَبَذْلًا مَهْمَا كَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في معالي الأخلاق، (٢٠١٨)، من حديث: جاب بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث حسن غريب».
والحديث صححه الألباني في «الصحيحة»: (٢/ ٤١٨، رقم ٧٩١).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (١٧/ ٩٩/ ٩٦٥١)، والمحاملي في «الأمالي» (١٦٨)، ومن طريقه أخرجه قوام السنة في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٨٥/ ١٢٠٨)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٣٣) كلهم من طريق أسود بن سالم حَدَّثَنا عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، به.
وحسن الحديث الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٤٥٩، ط دار المعرفة) وحسنه أيضا الحافظ الذهبي في «السير» (٨/ ٣٠٣).

وَعَظُمَ سَخَاؤُكُمْ؛ لِأَنَّ اسْتِيعَابَ عَامَّتِهِمْ بِالْإِحْسَانِ بِالْفِعْلِ غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَسَعُوهُمْ بِأَخْلَاقِكُمُ الْكَرِيمَةِ وَأَدَبِكُمُ الْجَمِيلِ؛ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَهَذَا أَمْرٌ هَيِّنٌ سَهْلٌ مُتَيَسِّرٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَوَهَبَهُ الْخُلُقَ الْحَسَنَ.

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ:

بُنَيَّ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ

هَذِهِ الْأَخْلَاقُ هِبَاتٌ مِنَ اللهِ، وَتَفَضُّلٌ مِنْهُ، يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ.(*).

إِنَّ هَذَا الحَالَ الشَّرِيفَ هُوَ بَابُ هِدَايَةِ الخَلْقِ، وَمِفْتَاحُ الإِقْبَالِ عَلَى الحَقِّ، وَهَذَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعَدِّدُ مَحَاسِنَ الإِسْلَامِ وَمَفاخِرَهُ لِلنَّجَاشِيِّ فِي مَشْهَدٍ عَجِيبٍ، وَحِوَارٍ مَهِيبٍ، دَرَسَ جَعْفَرُ أَدَواتِهِ، وَعَرَفَ كَيْفَ يُخَاطِبُ قُلُوبَ المُلُوكِ، حِينَ قَالَ لِلنَّجَاشِيِّ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ صِدْقَهُ وَنَسَبَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ؛ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مَوَاعِظُ وَتَذْكِيرٌ» (مُحَاضَرَة ٦٢: فَضْلُ حُسْنِ الْخُلُقِ فِي الْإِسْلَامِ»، السَّبْتُ ٢٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٤٤هـ| ١٧-١٢-٢٠٢٢م.

وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، قال: فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ»[1]. الْحَدِيثَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ شَاكِرٌ وَغَيْرُهُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ جَمِيعًا-.(*).

❀❀❀

(١) جزء من حديث طويل في الهجرة إلىٰ الحبشة، أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٠١-٢٠٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٩/ ٩ و١٤٤)، وفي «الدلائل» (٢/ ٣٠١-٣٠٦)، والحديث جود إسناده الألباني في «الصحيحة» (٧، ٥٧٨، رقم: ٣١٩٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «مِصْرُ وَخِيَانَةُ الْأَمَانَةِ» - الْجُمُعَةُ ١٨ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٦هـ| ٥-٦-٢٠١٥م.

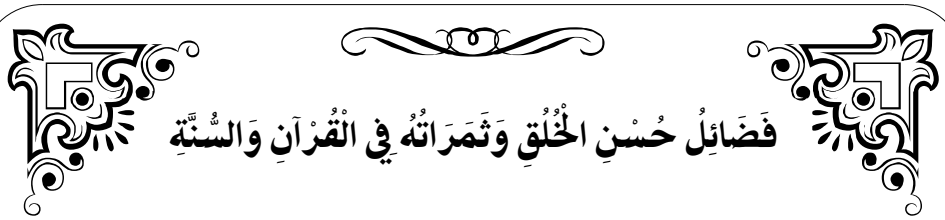

فَضَائِلُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَثَمَرَاتُهُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

إِنَّ كِتَابَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيهِ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَىٰ، وَفِيهِ النَّهْيُ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَالْحَثُّ عَلَىٰ الْفَضَائِلِ، وَفِيهِ التَّخْوِيفُ بِالنَّارِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي الْجَنَّةِ، وَفِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْهَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ، فَهَذَا عَطَاءُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَوْ تَلَاهُ.(*).

قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْقَرِيبَ مِنْكُمْ، الَّذِي يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ لَهُ وَظَائِفُ كُبْرَىٰ، مِنْهَا: أَنَّهُ يَدُلُّ وَيُرْشِدُ إِلَىٰ الطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الِاعْتِدَالِ الْكَامِلِ فِي كُلِّ سُلُوكٍ بَشَرِيٍّ، وَيُبَشِّرُ الْقُرْآنُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ بِأَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا يَنَالُونَهُ فِي الْجَنَّةِ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟» (الْمُحَاضَرَةُ الْعَاشِرَةُ)، الْأَرْبِعَاءُ ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ| ١٤-٦-٢٠١٧م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الإسراء: ٩].

«**لَقَدْ أَعَدَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَقِيمِينَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا وَدَعَا إِلَيْهَا الْجَنَّةَ وَالْكَرَامَةَ، مَعَ التَّوْفِيقِ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِعَانَةِ عَلَى الْخَيْرِ، وَأَعَدَّ لِمَنْ حَادَ عَنْهَا وَاسْتَكْبَرَ عَنْهَا دَارَ الْهَوَانِ، وَهِيَ النَّارُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ -نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ-.**

وَالْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ هِيَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، أَوْ أَمَرَ بِهَا رَسُولُهُ الْكَرِيمُ مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، أَوْ مَدَحَ أَهْلَهَا، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ وَالْفَوْزَ الْكَبِيرَ»(١).

وَهَذِهِ بَعْضُ الْآيَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ فِيهَا بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالْخِصَالِ الْفَاضِلَةِ، قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

«﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: هَذَا مِنْ قَسْوَتِهِمْ؛ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ أُمِرُوا بِهِ اسْتَعْصَوْا، فَلَا يَقْبَلُونَهُ إِلَّا بِالْأَيْمَانِ الْغَلِيظَةِ وَالْعُهُودِ الْمُوَثَّقَةِ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: هَذَا أَمْرٌ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَنَهْيٌ عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَهَذَا أَصْلُ الدِّينِ، فَلَا تُقْبَلُ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا أَسَاسَهَا، فَهَذَا حَقُّ اللهِ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ عِبَادِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيْ: أَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَهَذَا يَعُمُّ كُلَّ إِحْسَانٍ قَوْلِيٍّ وَفِعْلِيٍّ مِمَّا هُوَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِمْ، وَفِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْإِسَاءَةِ إِلَىٰ الْوَالِدَيْنِ، أَوْ عَدَمِ الْإِحْسَانِ وَالْإِسَاءَةِ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ الْإِحْسَانُ، وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ.

---

(١) مختصر من مقال: «الأخلاق الإسلامية» للشيخ العلامة: عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلِلْإِحْسَانِ ضِدَّانِ: الْإِسَاءَةُ، وَهِيَ أَعْظَمُ جُرْمًا، وَتَرْكُ الْإِحْسَانِ بِدُونِ إِسَاءَةٍ، وَهَذَا مُحَرَّمٌ؛ لَكِنْ لَا يَجِبُ أَنْ يَلْحَقَ بِالْأَوَّلِ، وَكَذَا يُقَالُ فِي صِلَةِ الْأَقَارِبِ، وَالْيَتَامَىٰ، وَالْمَسَاكِينِ، وَتَفَاصِيلُ الْإِحْسَانِ لَا تَنْحَصِرُ بِالْعَدِّ، بَلْ تَكُونُ بِالْحَدِّ.

ثُمَّ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَىٰ النَّاسِ عُمُومًا، فَقَالَ: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ وَمِنَ الْقَوْلِ الْحَسَنِ: أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمُهُمُ الْعِلْمَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ، وَالْبَشَاشَةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ كَلَامٍ طَيِّبٍ.

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَسَعُ النَّاسَ بِمَالِهِ؛ أَمَرَ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ بِهِ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ إِلَىٰ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ بِالْقَوْلِ، فَيَكُونُ فِي ضِمْنِ ذَلِكَ: النَّهْيُ عَنِ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ لِلنَّاسِ؛ حَتَّىٰ لِلْكُفَّارِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ **وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وَمِنْ أَدَبِ الْإِنْسَانِ الَّذِي أَدَّبَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ نَزِيهًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، غَيْرَ فَاحِشٍ وَلَا بَذِيءٍ، وَلَا شَاتِمٍ، وَلَا مُخَاصِمٍ، بَلْ يَكُونُ حَسَنَ الْخُلُقِ، وَاسِعَ الْحِلْمِ، مُجَامِلًا لِكُلِّ أَحَدٍ، صَبُورًا عَلَىٰ مَا يَنَالُهُ مِنْ أَذَىٰ الْخَلْقِ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ، وَرَجَاءً لِثَوَابِهِ.

ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ، وَالزَّكَاةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْعَبِيدِ»[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٥٧).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

«هَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِهَا، فَقَالَ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ﴾ أَيْ: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ أَعْدَاؤُكَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَلَا تُقَابِلْهُمْ بِالْإِسَاءَةِ، مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ مُعَاقَبَةُ الْمُسِيءِ بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِ؛ وَلَكِنِ ادْفَعْ إِسَاءَتَهُمْ إِلَيْكَ بِالْإِحْسَانِ مِنْكَ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْكَ عَلَىٰ الْمُسِيءِ.

وَمِنْ مَصَالِحِ ذَلِكَ: أَنَّهُ تَخِفُّ الْإِسَاءَةُ عَنْكَ فِي الْحَالِ وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنَّهُ أَدْعَىٰ لِجَلْبِ الْمُسِيءِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ نَدَمِهِ وَأَسَفِهِ، وَرُجُوعِهِ بِالتَّوْبَةِ عَمَّا فَعَلَ، وَيَتَّصِفُ الْعَافِي بِصِفَةِ الْإِحْسَانِ، وَيَقْهَرُ بِذَلِكَ عَدُوَّهُ الشَّيْطَانَ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ مِنَ الرَّبِّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيْ: مَا يُوَفَّقُ لِهَذَا الْخُلُقِ الْجَمِيلِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أَيْ: بِمَا يَقُولُونَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، قَدْ أَحَاطَ عِلْمُنَا بِذَلِكَ، وَقَدْ حَلِمْنَا عَنْهُمْ، وَأَمْهَلْنَاهُمْ، وَصَبَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَالْحَقُّ لَنَا، وَتَكْذِيبُهُمْ لَنَا، فَأَنْتَ -يَا مُحَمَّدُ- يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَصْبِرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ، وَتُقَابِلَهُمْ بِالْإِحْسَانِ، هَذِهِ وَظِيفَةُ الْعَبْدِ فِي مُقَابَلَةِ الْمُسِيءِ مِنَ الْبَشَرِ»[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٥٥٨).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

«وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الْمُوجِبَةِ لِلسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾، وَهَذَا أَمْرٌ بِكُلِّ كَلَامٍ يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ؛ مِنْ قِرَاءَةٍ، وَذِكْرٍ، وَعِلْمٍ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، وَكَلَامٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ مَعَ الْخَلْقِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، وَأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ حَسَنَيْنِ؛ فَإِنَّهُ يُؤْمَرُ بِإِيثَارِ أَحْسَنِهِمَا إِنْ لَمْ يُمْكِنِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

وَالْقَوْلُ الْحَسَنُ دَاعٍ لِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ؛ فَإِنَّ مَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ مَلَكَ جَمِيعَ أَمْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أَيْ: يَسْعَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ بِمَا يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَدَوَاءُ هَذَا أَلَّا يُطِيعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ غَيْرِ الْحَسَنَةِ الَّتِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَلِينُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ لِيَنْقَمِعَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّهُ عَدُوُّهُمُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُحَارِبُوهُ؛ فَإِنَّهُ يَدْعُوهُمْ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

وَأَمَّا إِخْوَانُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَسَعَىٰ فِي الْعَدَاوَةِ فَإِنَّ الْحَزْمَ كُلَّ الْحَزْمِ السَّعْيُ فِي ضِدِّ عَدُوِّهِمْ، وَأَنْ يَقْمَعُوا أَنْفُسَهُمُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، الَّتِي يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ مِنْ قِبَلِهَا؛ فَبِذَلِكَ يُطِيعُونَ رَبَّهُمْ، وَيَسْتَقِيمُ أَمْرُهُمْ، وَيُهْدَوْنَ لِرُشْدِهِمْ»(١).

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٦٠).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

«يَنْهَىٰ -تَعَالَىٰ- عَنْ مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا كَانَتْ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ الْمُجَادِلِ، أَوْ بِغَيْرِ قَاعِدَةٍ مَرْضِيَّةٍ، وَأَلَّا يُجَادِلُوا إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ بِحُسْنِ خُلُقٍ، وَلُطْفٍ، وَلِينِ كَلَامٍ، وَدَعْوَةٍ إِلَىٰ الْحَقِّ وَتَحْسِينِهِ، وَرَدٍّ عَنِ الْبَاطِلِ وَتَهْجِينِهِ بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ مُوَصِّلٍ لِذَلِكَ، وَأَلَّا يَكُونَ الْقَصْدُ مِنْهَا مُجَرَّدَ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُغَالَبَةِ، وَحُبِّ الْعُلُوِّ، بَلْ يَكُونُ الْقَصْدُ بَيَانَ الْحَقِّ وَهِدَايَةَ الْخَلْقِ؛ إِلا مَنْ ظَلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَنْ ظَهَرَ مِنْ قَصْدِهِ وَحَالِهِ أَنَّهُ لَا إِرَادَةَ لَهُ فِي الْحَقِّ، وَإِنَّمَا يُجَادِلُ عَلَىٰ وَجْهِ الْمُشَاغَبَةِ وَالْمُغَالَبَةِ، فَهَذَا لَا فَائِدَةَ فِي جِدَالِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا ضَائِعٌ.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ أَيْ: وَلْتَكُنْ مُجَادَلَتُكُمْ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مَبْنِيَّةً عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَأُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِرَسُولِكُمْ وَرَسُولِهِمْ، وَعَلَىٰ أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَلَا تَكُنْ مُنَاظَرَتُكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ وَجْهٍ يَحْصُلُ بِهِ الْقَدْحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهَلَةُ عِنْدَ مُنَاظَرَةِ الْخُصُومِ، يَقْدَحُ بِجَمِيعِ مَا مَعَهُمْ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَهَذَا ظُلْمٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْوَاجِبِ وَآدَابِ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يَرُدَّ مَا مَعَ الْخَصْمِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَقْبَلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَرُدَّ الْحَقَّ لِأَجْلِ قَوْلِهِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا.

وَأَيْضًا فَإِنَّ بِنَاءَ مُنَاظَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ فِيهِ إِلْزَامٌ لَهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالْقُرْآنِ وَبِالرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الْأُصُولِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي اتَّفَقَتْ

عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْكُتُبُ، وَتَقَرَّرَتْ عِنْدَ الْمُتَنَاظِرَيْنِ، وَثَبَتَتْ حَقَائِقُهَا عِنْدَهُمَا، وَكَانَتِ الْكُتُبُ السَّابِقَةُ وَالْمُرْسَلُونَ مَعَ الْقُرْآنِ وَمُحَمَّدٍ ﷺ قَدْ بَيَّنَتْهَا، وَدَلَّتْ عَلَيْهَا، وَأَخْبَرَتْ بِهَا؛ فَإِنَّهُ يَلْزَمُ التَّصْدِيقُ بِالْكُتُبِ كُلِّهَا، وَالرُّسُلِ كُلِّهِمْ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ.

فَأَمَّا أَنْ يُقَالَ: نُؤْمِنُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْفُلَانِيُّ دُونَ الْكِتَابِ الْفُلَانِيِّ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي صَدَّقَ مَا قَبْلَهُ، فَهَذَا ظُلْمٌ وَهَوًى، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَىٰ قَوْلِهِ بِالتَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَذَّبَ الْقُرْآنَ الدَّالَّ عَلَيْهَا، الْمُصَدِّقَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ؛ فَإِنَّهُ مُكَذِّبٌ لِمَا زَعَمَ أَنَّهُ بِهِ مُؤْمِنٌ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ كُلَّ طَرِيقٍ تَثْبُتُ بِهِ نُبُوَّةُ أَيِّ نَبِيٍّ كَانَ فَإِنَّ مِثْلَهَا وَأَعْظَمَ مِنْهَا دَالَّةٌ عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكُلَّ شُبْهَةٍ يُقْدَحُ بِهَا فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ مِثْلَهَا أَوْ أَعْظَمَ مِنْهَا يُمْكِنُ تَوْجِيهُهَا إِلَىٰ نُبُوَّةِ غَيْرِهِ، فَإِذَا ثَبَتَ بُطْلَانُهَا فِي غَيْرِهِ فَثُبُوتُ بُطْلَانِهَا فِي حَقِّهِ ﷺ أَظْهَرُ وَأَظْهَرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ: مُنْقَادُونَ مُسْتَسْلِمُونَ لِأَمْرِهِ، وَمَنْ آمَنَ بِهِ، وَاتَّخَذَهُ إِلَهًا، وَآمَنَ بِجَمِيعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَانْقَادَ لِلَّهِ، وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ؛ فَهُوَ السَّعِيدُ، وَمَنِ انْحَرَفَ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ فَهُوَ الشَّقِيُّ»[1].

وَقَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى

(١) «تفسير السعدي» (ص٦٣٢).

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

«هَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ النَّفْيِ الْمُتَقَرِّرِ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَحْسَنُ قَوْلًا -أَيْ: كَلَامًا وَطَرِيقَةً وَحَالَةً- مِمَّنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ بِتَعْلِيمِ الْجَاهِلِينَ، وَوَعْظِ الْغَافِلِينَ وَالْمُعْرِضِينَ، وَمُجَادَلَةِ الْمُبْطِلِينَ، بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، وَالْحَثِّ عَلَيْهَا، وَتَحْسِينِهَا مَهْمَا أَمْكَنَ، وَالزَّجْرُ عَمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، وَتَقْبِيحُهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ يُوجِبُ تَرْكَهُ؛ خُصُوصًا مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ أَصْلِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَتَحْسِينِهِ، وَمُجَادَلَةِ أَعْدَائِهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَالنَّهْيُ عَمَّا يُضَادُّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ: تَحْبِيبُهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ بِذِكْرِ تَفَاصِيلِ نِعَمِهِ، وَسَعَةِ جُودِهِ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ، وَذِكْرِ أَوْصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ.

وَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ: التَّرْغِيبُ فِي اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالْهُدَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَالْحَثُّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِكُلِّ طَرِيقٍ مُوَصِّلٍ إِلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْحَثُّ عَلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَىٰ عُمُومِ الْخَلْقِ، وَمُقَابَلَةُ الْمُسِيءِ بِالْإِحْسَانِ، وَالْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْوَعْظُ لِعُمُومِ النَّاسِ فِي أَوْقَاتِ الْمَوَاسِمِ، وَالْعَوَارِضِ، وَالْمَصَائِبِ بِمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْحَالَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَنْحَصِرُ أَفْرَادُهُ مِمَّا تَشْمَلُهُ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَالتَّرْهِيبِ مِنْ جَمِيعِ الشَّرِّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَيْ: مَعَ دَعْوَتِهِ الْخَلْقَ إِلَىٰ اللهِ بَادَرَ هُوَ بِنَفْسِهِ إِلَىٰ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُرْضِي رَبَّهُ، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أَيِ: الْمُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ، السَّالِكِينَ فِي طَرِيقِهِ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَمَامُهَا لِلصِّدِّيقِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا عَلَىٰ تَكْمِيلِ أَنْفُسِهِمْ، وَتَكْمِيلِ غَيْرِهِمْ، وَحَصَلَتْ لَهُمُ الْوِرَاثَةُ التَّامَّةُ مِنَ الرُّسُلِ، كَمَا أَنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ قَوْلًا: مَنْ كَانَ مِنْ دُعَاةِ الضَّالِّينَ السَّالِكِينَ لِسُبُلِهِ.

وَبَيْنَ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ الْمُتَبَايِنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ارْتَفَعَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَىٰ أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ وَنَزَلَتِ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلَ سَافِلِينَ مَرَاتِبُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، وَكُلُّهَا مَعْمُورَةٌ بِالْخَلْقِ، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ﴾ أَيْ: لَا يَسْتَوِي فِعْلُ الْحَسَنَاتِ وَالطَّاعَاتِ لِأَجْلِ رِضَا اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَلَا فِعْلُ السَّيِّئَاتِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي تُسْخِطُهُ وَلَا تُرْضِيهِ، وَلَا يَسْتَوِي الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْخَلْقِ، وَلَا الْإِسَاءَةُ إِلَيْهِمْ، لَا فِي ذَاتِهَا، وَلَا فِي وَصْفِهَا، وَلَا فِي جَزَائِهَا ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟!

ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْسَانٍ خَاصٍّ لَهُ مَوْقِعٌ كَبِيرٌ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، فَقَالَ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أَيْ: فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ مُسِيءٌ مِنَ الْخَلْقِ -خُصُوصًا مَنْ لَهُ حَقٌّ كَبِيرٌ عَلَيْكَ؛ كَالْأَقَارِبِ، وَالْأَصْحَابِ، وَنَحْوِهِمْ- إِسَاءَةً بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ؛ فَقَابِلْهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَطَعَكَ فَصِلْهُ، وَإِنْ ظَلَمَكَ فَاعْفُ عَنْهُ، وَإِنْ

تَكَلَّمَ فِيكَ غَائِبًا أَوْ حَاضِرًا فَلَا تُقَابِلْهُ، بَلِ اعْفُ عَنْهُ، وَعَامِلْهُ بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ، وَإِنْ هَجَرَكَ، وَتَرَكَ خِطَابَكَ؛ فَطَيِّبْ لَهُ الْكَلَامَ، وَابْذُلْ لَهُ السَّلَامَ، فَإِذَا قَابَلْتَ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ؛ حَصَلَتْ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أَيْ: كَأَنَّهُ قَرِيبٌ شَفِيقٌ.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيْ: وَمَا يُوَفَّقُ لِهَذِهِ الْخَصْلَةِ الْحَمِيدَةِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ نُفُوسَهُمْ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ، وَأَجْبَرُوهَا عَلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهُ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ مُقَابَلَةِ الْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَعَدَمِ الْعَفْوِ عَنْهُ؛ فَكَيْفَ بِالْإِحْسَانِ؟!!

فَإِذَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَعَرَفَ جَزِيلَ الثَّوَابِ، وَعَلِمَ أَنَّ مُقَابَلَتَهُ لِلْمُسِيءِ بِجِنْسِ عَمَلِهِ لَا يُفِيدُهُ شَيْئًا، وَلَا يَزِيدُ الْعَدَاوَةَ إِلَّا شِدَّةً، وَأَنَّ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ لَيْسَ بِوَاضِعِ قَدْرِهِ، بَلْ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ؛ هَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَفَعَلَ ذَلِكَ مُتَلَذِّذًا مُسْتَحْلِيًا لَهُ.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ لِكَوْنِهَا مِنْ خِصَالِ خَوَاصِّ الْخَلْقِ الَّتِي يَنَالُ بِهَا الْعَبْدُ الرِّفْعَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ خِصَالِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»(١).

وَذَكَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **جُمْلَةً مِنْ أَخْلَاقِ وَخِصَالِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا

(١) «تفسير السعدي»(ص٧٤٩).

عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦].

«**الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ نَوْعَانِ**: عُبُودِيَّةٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ، فَهَذِهِ يَشْتَرِكُ فِيهَا سَائِرُ الْخَلْقِ؛ مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ، فَكُلُّهُمْ عَبِيدٌ لِلَّهِ، مَرْبُوبُونَ مُدَبَّرُونَ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وَعُبُودِيَّةٌ لِأُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهِيَ عُبُودِيَّةُ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَهِيَ الْمُرَادُ هُنَا؛ وَلِهَذَا أَضَافَهَا إِلَىٰ اسْمِهِ (الرَّحْمَن)، إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُمْ إِنَّمَا وَصَلُوا إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ، فَذَكَرَ أَنَّ صِفَاتِهِمْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ، وَنُعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَيْ: سَاكِنِينَ مُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ وَالْخَلْقِ، فَهَذَا وَصْفٌ لَهُمْ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ وَالتَّوَاضُعِ لِلَّهِ وَلِعِبَادِهِ، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أَيْ: خِطَابَ جَهْلٍ؛ بِدَلِيلِ إِضَافَةِ الْفِعْلِ وَإِسْنَادِهِ لِهَذَا

الْوَصْفِ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أَيْ: خَاطَبُوهُمْ خِطَابًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ، وَيَسْلَمُونَ مِنْ مُقَابَلَةِ الْجَاهِلِ بِجَهْلِهِ، وَهَذَا مَدْحٌ لَهُمْ بِالْحِلْمِ الْكَثِيرِ، وَمُقَابَلَةِ الْمُسِيءِ بِالْإِحْسَانِ، وَالْعَفْوِ عَنِ الْجَاهِلِ، وَرَزَانَةِ الْعَقْلِ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أَيْ: يُكْثِرُونَ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ، مُخْلِصِينَ فِيهَا لِرَبِّهِمْ، مُتَذَلِّلِينَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧].

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أَيِ: ادْفَعْهُ عَنَّا بِالْعِصْمَةِ مِنْ أَسْبَابِهِ، وَمَغْفِرَةِ مَا وَقَعَ مِنَّا مِمَّا هُوَ مُقْتَضٍ لِلْعَذَابِ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أَيْ: مُلَازِمًا لِأَهْلِهَا بِمَنْزِلَةِ مُلَازَمَةِ الْغَرِيمِ لِغَرِيمِهِ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وَهَذَا مِنْهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التَّضَرُّعِ لِرَبِّهِمْ، وَبَيَانِ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسَ فِي طَاقَتِهِمُ احْتِمَالُ هَذَا الْعَذَابِ، وَلِيَتَذَكَّرُوا مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ صَرْفَ الشِّدَّةِ بِحَسَبِ شِدَّتِهَا وَفَظَاعَتِهَا يَعْظُمُ وَقْعُهَا، وَيَشْتَدُّ الْفَرَحُ بِصَرْفِهَا.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا﴾ النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةَ وَالْمُسْتَحَبَّةَ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ بِأَنْ يَزِيدُوا عَلَىٰ الْحَدِّ فَيَدْخُلُوا فِي قِسْمِ التَّبْذِيرِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ فَيَدْخُلُوا فِي بَابِ الْبُخْلِ وَالشُّحِّ، وَإِهْمَالِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ، ﴿وَكَانَ﴾ إِنْفَاقُهُمْ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ ﴿قَوَامًا﴾ يَبْذُلُونَ فِي الْوَاجِبَاتِ مِنَ الزَّكَوَاتِ، وَالْكَفَّارَاتِ، وَالنَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ، وَفِيمَا يَنْبَغِي عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ وَلَا ضِرَارٍ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِمْ وَاقْتِصَادِهِمْ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، مُقْبِلِينَ عَلَيْهِ، مُعْرِضِينَ عَمَّا سِوَاهُ، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: وَهِيَ نَفْسُ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ الْمُعَاهَدِ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ كَقَتْلِ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَقَتْلِ الزَّانِي الْمُحْصَنِ، وَالْكَافِرِ الَّذِي يَحِلُّ قَتْلُهُ، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بَلْ يَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ إِلا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الشِّرْكَ بِاللهِ، أَوْ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوِ الزِّنَا؛ فَسَوْفَ ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أَيْ: فِي الْعَذَابِ ﴿مُهَانًا﴾؛ فَالْوَعِيدُ بِالْخُلُودِ لِمَنْ فَعَلَهَا كُلَّهَا ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَكَذَلِكَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ، وَكَذَلِكَ الْوَعِيدُ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ؛ لِكَوْنِهَا إِمَّا شِرْكٌ، وَإِمَّا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

وَأَمَّا خُلُودُ الْقَاتِلِ وَالزَّانِي فِي الْعَذَابِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُهُ الْخُلُودُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ أَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ سَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، وَلَا يَخْلُدُ فِيهَا مُؤْمِنٌ وَلَوْ فَعَلَ مِنَ الْمَعَاصِي مَا فَعَلَ، وَنَصَّ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؛ فَالشِّرْكُ فِيهِ فَسَادُ الْأَدْيَانِ، وَالْقَتْلُ فِيهِ فَسَادُ الْأَبْدَانِ، وَالزِّنَا فِيهِ فَسَادُ الْأَعْرَاضِ.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عَنْ هَذِهِ الْمَعَاصِي وَغَيْرِهَا بِأَنْ أَقْلَعَ عَنْهَا فِي الْحَالِ، وَنَدِمَ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ لَهُ مِنْ فِعْلِهَا، وَعَزَمَ عَزْمًا جَازِمًا أَلَّا يَعُودَ، ﴿وَءَامَنَ﴾ بِاللهِ إِيمَانًا صَحِيحًا يَقْتَضِي تَرْكَ الْمَعَاصِي، وَفِعْلَ الطَّاعَاتِ، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مِمَّا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ إِذَا قَصَدَ بِهِ وَجْهَ اللهِ؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ أَيْ:

تَتَبَدَّلُ أَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمُ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لِعَمَلِ السَّيِّئَاتِ.. تَتَبَدَّلُ حَسَنَاتٍ، فَيَتَبَدَّلُ شِرْكُهُمْ إِيمَانًا، وَمَعْصِيَتُهُمْ طَاعَةً، وَتَتَبَدَّلُ نَفْسُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي عَمِلُوهَا، ثُمَّ أَحْدَثُوا عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ مِنْهَا تَوْبَةً وَإِنَابَةً وَطَاعَةً؛ تَتَبَدَّلُ حَسَنَاتٍ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَوَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي حَاسَبَهُ اللهُ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِ، فَعَدَّدَهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَبْدَلَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَقَالَ: «يَا رَبِّ! إِنَّ لِي سَيِّئَاتٍ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا»، وَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَنْ تَابَ، يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الْعَظِيمَةَ، ﴿رَّحِيمًا﴾ بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ بَعْدَ مُبَارَزَتِهِ بِالْعَظَائِمِ، ثُمَّ وَفَّقَهُمْ لَهَا، ثُمَّ قَبِلَهَا مِنْهُمْ.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أَيْ: فَلْيَعْلَمْ أَنَّ تَوْبَتَهُ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ؛ لِأَنَّهَا رُجُوعٌ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ اللهِ، الَّذِي هُوَ عَيْنُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَفَلَاحُهُ؛ فَلْيُخْلِصْ فِيهَا، وَلْيُخَلِّصْهَا مِنْ شَوَائِبِ الْأَغْرَاضِ الْفَاسِدَةِ، فَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: الْحَثُّ عَلَىٰ تَكْمِيلِ التَّوْبَةِ، وَإِيقَاعِهَا عَلَىٰ أَفْضَلِ الْوُجُوهِ وَأَجَلِّهَا؛ لِيَقْدَمَ عَلَىٰ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ فَيُوَفِّيَهُ أَجْرَهُ بِحَسَبِ كَمَالِهَا.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أَيْ: لَا يَحْضُرُونَ الزُّورَ، أَيِ: الْقَوْلَ وَالْفِعْلَ الْمُحَرَّمَ، فَيَجْتَنِبُونَ جَمِيعَ الْمَجَالِسِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ الْأَقْوَالِ الْمُحَرَّمَةِ، أَوِ الْأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ؛ كَالْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللهِ، وَالْجِدَالِ الْبَاطِلِ، وَالْغِيبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَالسَّبِّ، وَالْقَذْفِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ، وَالْغِنَاءِ الْمُحَرَّمِ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَفُرُشِ الْحَرِيرِ، وَالصُّوَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ؛ فَمِنْ بَابِ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ أَلَّا

يَقُولُوهُ وَيَفْعَلُوهُ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِ الزُّورِ، تَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْأَوْلَوِيَّةِ.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ﴾: وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ دِينِيَّةٌ وَلَا دُنْيَوِيَّةٌ؛ كَكَلَامِ السُّفَهَاءِ وَنَحْوِهِمْ؛ ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أَيْ: نَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَكْرَمُوهَا عَنِ الْخَوْضِ فِيهِ، وَرَأَوْا أَنَّ الْخَوْضَ فِيهِ وَإِنْ كَانَ لَا إِثْمَ فِيهِ فَإِنَّهُ سَفَهٌ وَنَقْصٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمُرُوءَةِ، فَرَبَؤُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ حُضُورَهُ وَلَا سَمَاعَهُ، وَلَكِنْ عِنْدَ الْمُصَادَفَةِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ يُكْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْهُ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الَّتِي أَمَرَهُمْ بِاسْتِمَاعِهَا، وَالِاهْتِدَاءِ بِهَا؛ ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أَيْ: لَمْ يُقَابِلُوهَا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَالصَّمَمِ عَنْ سَمَاعِهَا، وَصَرْفِ النَّظَرِ وَالْقُلُوبِ عَنْهَا، كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا وَلَمْ يُصَدِّقْ، وَإِنَّمَا حَالُهُمْ فِيهَا وَعِنْدَ سَمَاعِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥]: يُقَابِلُونَهَا بِالْقَبُولِ، وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالِانْقِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ لَهَا، وَتَجِدُ عِنْدَهُمْ آذَانًا سَامِعَةً، وَقُلُوبًا وَاعِيَةً، فَيَزْدَادُ بِهَا إِيمَانُهُمْ، وَيَتِمُّ بِهَا إِيقَانُهُمْ، وَتُحْدِثُ لَهُمْ نَشَاطًا، وَيَفْرَحُونَ بِهَا سُرُورًا وَاغْتِبَاطًا.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ أَيْ: قُرَنَائِنَا؛ مِنْ أَصْحَابٍ، وَأَقْرَانٍ، وَزَوْجَاتٍ ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أَيْ: تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنُنَا، وَإِذَا اسْتَقَرَّتْ أَنَا

حَالَهُمْ وَصِفَاتِهِمْ عَرَفْنَا مِنْ هِمَمِهِمْ وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا تَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ حَتَّىٰ يَرَوْهُمْ مُطِيعِينَ لِرَبِّهِمْ، عَالِمِينَ عَامِلِينَ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ دُعَاءٌ لِأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ فِي صَلَاحِهِمْ فَإِنَّهُ دُعَاءٌ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّ نَفْعَهُ يَعُودُ عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا ذَلِكَ هِبَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾؛ بَلْ دُعَاؤُهُمْ يَعُودُ إِلَىٰ نَفْعِ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ بِصَلَاحِ مَنْ ذُكِرَ يَكُونُ سَبَبًا لِصَلَاحِ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَنْتَفِعُ بِهِمْ.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أَيْ: أَوْصِلْنَا يَا رَبَّنَا إِلَىٰ هَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَالِيَةِ؛ دَرَجَةِ الصِّدِّيقِينَ وَالْكُمَّلِ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَكُونُوا قُدْوَةً لِلْمُتَّقِينَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، يُقْتَدَىٰ بِأَفْعَالِهِمْ، وَيُطْمَئَنُّ لِأَقْوَالِهِمْ، وَيَسِيرُ أَهْلُ الْخَيْرِ خَلْفَهُمْ، فَيَهْدُونَ وَيَهْتَدُونَ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الدُّعَاءَ بِبُلُوغِ شَيْءٍ دُعَاءٌ بِمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ -دَرَجَةُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ- لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فَهَذَا الدُّعَاءُ يَسْتَلْزِمُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَأَقْدَارِهِ الْمُؤْلِمَةِ، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَمِنَ الْعِلْمِ التَّامِّ الَّذِي يُوصِلُ صَاحِبَهُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ خَيْرًا كَثِيرًا وَعَطَاءً جَزِيلًا، وَأَنْ يَكُونُوا فِي أَعْلَىٰ مَا يُمْكِنُ مِنْ دَرَجَاتِ الْخَلْقِ بَعْدَ الرُّسُلِ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ هِمَمُهُمْ وَمَطَالِبُهُمْ عَالِيَةً؛ كَانَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَجَازَاهُمْ بِالْمَنَازِلِ الْعَالِيَاتِ، فَقَالَ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أَيِ: الْمَنَازِلَ الرَّفِيعَةَ، وَالْمَسَاكِنَ الْأَنِيقَةَ الْجَامِعَةَ لِكُلِّ مَا يُشْتَهَىٰ وَتَلَذُّهُ الْأَعْيُنُ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ نَالُوا مَا نَالُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ

بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤]؛ وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ مِنْ رَبِّهِمْ، وَمِنْ مَلَائِكَتِهِ الْكِرَامِ، وَمِنْ بَعْضٍ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَسْلَمُونَ مِنْ جَمِيعِ الْمُنَغِّصَاتِ وَالْمُكَدِّرَاتِ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ اللهَ وَصَفَهُمْ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَالتَّوَاضُعِ لَهُ وَلِعِبَادِهِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ، وَالْحِلْمِ، وَسِعَةِ الْخُلُقِ، وَالْعَفْوِ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، وَمُقَابَلَةِ إِسَاءَتِهِمْ بِالْإِحْسَانِ، وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَالْإِخْلَاصِ فِيهِ، وَالْخَوْفِ مِنَ النَّارِ، وَالتَّضَرُّعِ لِرَبِّهِمْ أَنْ يُنْجِيَهُمْ مِنْهَا، وَإِخْرَاجِ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ فِي النَّفَقَاتِ، وَالِاقْتِصَادِ فِي ذَلِكَ -وَإِذَا كَانُوا مُقْتَصِدِينَ فِي الْإِنْفَاقِ الَّذِي جَرَتِ الْعَادَةُ بِالتَّفْرِيطِ فِيهِ أَوِ الْإِفْرَاطِ؛ فَاقْتِصَادُهُمْ وَتَوَسُّطُهُمْ فِي غَيْرِهِ مِنْ بَابٍ أَوْلَىٰ-، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَالِاتِّصَافِ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَالْعِفَّةِ عَنِ الدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ، وَالتَّوْبَةِ عِنْدَ صُدُورِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَنَّهُمْ لَا يَحْضُرُونَ مَجَالِسَ الْمُنْكَرِ وَالْفُسُوقِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، وَلَا يَفْعَلُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَنَزَّهُونَ مِنَ اللَّغْوِ، وَالْأَفْعَالِ الرَّدِيَّةِ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ مُرُوءَتَهُمْ، وَإِنْسَانِيَّتَهُمْ، وَكَمَالَهُمْ، وَرِفْعَةَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ كُلِّ خَسِيسٍ قَوْلِيٍّ وَفِعْلِيٍّ، وَأَنَّهُمْ يُقَابِلُونَ آيَاتِ اللهِ بِالْقَبُولِ لَهَا، وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا، وَالِاجْتِهَادِ فِي تَنْفِيذِ أَحْكَامِهَا، وَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللهَ -تَعَالَىٰ- بِأَكْمَلِ الدُّعَاءِ فِي الدُّعَاءِ الَّذِي يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ صَلَاحِ أَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ، وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ: سَعْيُهُمْ فِي تَعْلِيمِهِمْ، وَوَعْظِهِمْ، وَنُصْحِهِمْ؛ لِأَنَّ مَنْ حَرَصَ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَدَعَا اللهَ بِهِ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَسَبِّبًا فِيهِ، وَأَنَّهُمْ دَعَوُا اللهَ بِبُلُوغِ أَعْلَىٰ الدَّرَجَاتِ الْمُمْكِنَةِ لَهُمْ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْإِمَامَةِ وَالصِّدِّيقِيَّةِ.

فَلِلَّهِ! مَا أَعْلَىٰ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَأَرْفَعَ هَذِهِ الْهِمَمَ، وَأَجَلَّ هَذِهِ الْمَطَالِبَ، وَأَزْكَىٰ تِلْكَ النُّفُوسَ، وَأَطْهَرَ تِلْكَ الْقُلُوبَ، وَأَصْفَىٰ هَؤُلَاءِ الصَّفْوَةَ، وَأَتْقَىٰ هَؤُلَاءِ السَّادَةَ!

وَلِلَّهِ! فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَنِعْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ الَّتِي جَلَّلَتْهُمْ، وَلُطْفُهُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَنَازِلِ!

وَلِلَّهِ! مِنَّةُ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ بَيَّنَ لَهُمْ أَوْصَافَهُمْ، وَنَعَتَ لَهُمْ هَيْئَاتِهِمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ هِمَمَهُمْ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ أُجُورَهُمْ؛ لِيَشْتَاقُوا إِلَىٰ الِاتِّصَافِ بِأَوْصَافِهِمْ، وَيَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَيَسْأَلُوا الَّذِي مَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ، الَّذِي فَضْلُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ أَنْ يَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَاهُمْ، وَيَتَوَلَّاهُمْ بِتَرْبِيَتِهِ الْخَاصَّةِ كَمَا تَوَلَّاهُمْ.

فَاللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَىٰ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ، لَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا نَقْدِرُ عَلَىٰ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ إِنْ لَمْ تُيَسِّرْ ذَلِكَ لَنَا؛ فَإِنَّا ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، نَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ وَكَلْتَنَا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ وَكَلْتَنَا إِلَىٰ ضَعْفٍ وَعَجْزٍ وَخَطِيئَةٍ، فَلَا نَثِقُ يَا رَبَّنَا إِلَّا بِرَحْمَتِكَ الَّتِي بِهَا خَلَقْتَنَا، وَرَزَقْتَنَا، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْنَا بِمَا أَنْعَمْتَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَصَرَفْتَ عَنَّا مِنَ النِّقَمِ، فَارْحَمْنَا رَحْمَةً تُغْنِينَا بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِوَاكَ؛ فَلَا خَابَ مَنْ سَأَلَكَ وَرَجَاكَ»(١).

---

(١) «تفسير السعدي»(ص٥٨٧).

وَهَذِهِ وَصَايَا وَصَّىٰ بِهَا لُقْمَانُ ابْنَهُ، تَجْمَعُ أُمَّهَاتِ الْحِكَمِ، وَتَسْتَلْزِمُ مَا لَمْ يُذْكَرْ مِنْهَا، وَكُلُّ وَصِيَّةٍ يُقْرَنُ بِهَا مَا يَدْعُو إِلَىٰ فِعْلِهَا إِنْ كَانَتْ أَمْرًا، وَإِلَىٰ تَرْكِهَا إِنْ كَانَتْ نَهْيًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

يَا بُنَيَّ الْقَرِيبَ مِنْ قَلْبِي وَالْحَبِيبَ لِي! إِنِّي أُوصِيكَ بِهَذِهِ الْوَصَايَا الثَّمَانِيَةِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَيْتُكَ بِعَهْدٍ مُؤَكَّدٍ مُشَدَّدٍ أَلَّا تُشْرِكَ بِاللهِ:

* **الْوَصِيَّةُ الْأُولَىٰ:** أَدِّ الصَّلَاةَ تَامَّةً بِأَرْكَانِهَا، وَشُرُوطِهَا، وَوَاجِبَاتِهَا.

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةُ: وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ.

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ.

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: وَسَيُصِيبُكَ أَذًىٰ مِنَ الَّذِينَ تَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ؛ إِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ عَلَىٰ مَا يُصِيبُ الْقَائِمَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ يَحْتَاجُ إِرَادَةً قَوِيَّةً رَفِيعَةً هِيَ مِنْ مُسْتَوَىٰ الْعَزْمِ الَّذِي يَدْفَعُ أَصْحَابَهُ إِلَىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدُونَ مِمَّا يُرْضِي اللهَ جَلَّوَعَلَا؛ وَلَوِ اقْتَرَنَ بِهِ تَحَمُّلُ أَشَدِّ الصُّعُوبَاتِ، وَتَحَمُّلُ أَعْظَمِ الْآلَامِ.

﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

* **الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ:** وَلَا تَتَكَبَّرْ؛ فَتَحْقِرَ النَّاسَ، وَتُعْرِضَ بِوَجْهِكَ عَنْهُمْ إِذَا كَلَّمُوكَ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْكِبْرِ.

* **الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ:** وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مُخْتَالًا مُتَبَخْتِرًا فِي مِشْيَتِكَ؛ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فِي مَشْيِهِ، مُسْتَكْبِرٍ عَلَىٰ النَّاسِ بِإِعْرَاضِهِ عَنْهُمْ، مُبَالِغٍ فِي الْفَخْرِ عَلَىٰ النَّاسِ بِنَفْسِهِ، أَوْ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ قُوَّةٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ نَسَبٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ ذَكَاءٍ، أَوْ جَمَالِ وَجْهٍ وَحُسْنِ طَلْعَةٍ.

وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِهِ.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: وَلْتَكُنْ فِي مِشْيَتِكَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ الْإِسْرَاعِ وَالتَّأَنِّي، فِي سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ.

الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: وَاخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ بِقَدْرِ حَاجَةِ الْمُسْتَمِعِينَ؛ إِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَفْعِهِ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِيرِ؛ فَلَا تَكُنْ يَا بُنَيَّ مُتَّصِفًا بِصِفَةٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِيرِ الَّتِي تَنْهَقُ فَتَرْفَعُ أَصْوَاتَهَا الْمُنْكَرَةَ؛ إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ وَأَكْثَرَهَا تَنْفِيرًا لِلْأَسْمَاعِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ.

يَا بُنَيَّ! إِنَّ السَّيِّئَةَ أَوِ الْحَسَنَةَ مَهْمَا كَانَتْ صَغِيرَةً مِثْلَ وَزْنِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، وَكَانَتْ فِي بَطْنِ صَخْرَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، أَوْ كَانَتْ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِي الْعَبْدَ عَلَيْهَا.

إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، خَبِيرٌ بِهِمْ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ.

يَا بُنَيَّ! أَقِمِ الصَّلَاةَ بِأَدَائِهَا عَلَىٰ أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا نَالَكَ مِنْ مَكْرُوهٍ فِي ذَلِكَ؛ إِنَّ مَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا عَزَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَهُ؛ فَلَا خِيرَةَ لَكَ فِيهِ.

وَلَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا، وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ مُخْتَالًا مُتَكَبِّرًا؛ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فِي مِشْيَتِهِ، فَخُورٍ بِمَا أُوتِيَ مِنْ نِعَمٍ لَا يَشْكُرُ اللهَ عَلَيْهَا، بَلْ يُبْغِضُهُ.

وَتَوَسَّطْ فِي مَشْيِكَ بَيْنَ الْإِسْرَاعِ وَالدَّبِيبِ، مَشْيًا يُظْهِرُ الْوَقَارَ.

وَاخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ، لَا تَرْفَعْهُ رَفْعًا يُؤْذِي؛ إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ فِي ارْتِفَاعِ أَصْوَاتِهَا.(*).

وَذَكَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَىٰ أَدَبٍ عَظِيمٍ، وَذَلِكَ أَدَبُ الْقُرْآنِ الَّذِي أَدَّبَهُ اللهُ بِهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَشَرَائِعُهُ(٢)، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٣-٤].

«وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا عَظِيمًا -كَمَا يُفِيدُهُ التَّنْكِيرُ- غَيْرَ مَقْطُوعٍ، بَلْ هُوَ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ؛ وَذَلِكَ لِمَا أَسْلَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْكَامِلَةِ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[لقمان: ١٢-١٩]».

(٢) الطبري (٢٣/ ٥٢٨).

وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: عَلِيٌّ بِهِ، مُسْتَعْلٍ بِخُلُقِكَ الَّذِي مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ بِهِ.(*).

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ(٢) **وَمُجَاهِدٌ**(٣): «لَعَلَىٰ دِينٍ عَظِيمٍ، لَا دِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أَرْضَىٰ عِنْدِي مِنْهُ».

وَقَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه: «هُوَ آدَابُ الْقُرْآنِ»(٤).

وَقَالَ قَتَادَةُ: «هُوَ مَا كَانَ يَأْتَمِرُ بِهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ، وَيَنْتَهِي عَنْهُ مِنْ نَهْيِ اللهِ»(٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «قِرَاءَةُ تَفْسِيرِ السَّعْدِيِّ» (تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَمِ» - الثُّلَاثَاءُ ١١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣١هـ| ٢٦-١-٢٠١٠م.

(٢) أخرجه الطبري في «**جامع البيان**»: (٢٩/ ١٨)، بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه أبو عبيد في «**فضائل القرآن**»: (ص ١١٢)، والطبري في «**جامع البيان**»: (٢٩/ ١٨)، بإسناد صحيح.

(٤) «**معالم التنزيل**»: (٨/ ١٨٧).

وأخرج نحوه ابن المبارك في «**الزهد**»: (٢/ ٢١٧، رقم ٦٧٨)، والطبري في «**جامع البيان**»: (٢٩/ ١٩)، والآجري في «**الشريعة**»: (٣/ ١٥١٦، رقم ١٠٢٤)، والبيهقي في «**الدلائل**»: (١/ ٣١٠)، بإسناد صحيح، عن عَطِيَّةَ الْعَوْفِيّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قَالَ: «أَدَبُ الْقُرْآنِ».

وروي عن مجاهد نحوه أيضًا، وانظر: «**تفسير الماوردي**»: (٦/ ٦١).

(٥) «**معالم التنزيل**»: (٨/ ١٨٨)، و«**الجامع لأحكام القرآن**»: (١٨/ ٢٢٧).

وأخرج نحوه الطبري في «**جامع البيان**»: (٢٩/ ١٩)، بإسناد صحيح، عن الضَّحَّاك، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: «يَعْنِي: دِينَهُ وَأَمْرَهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِمَّا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ وَوَكَّلَهُ إِلَيْهِ».

وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّكَ لَعَلَىٰ الْخُلُقِ الَّذِي آثَرَكَ اللهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ.(*).

وَحَاصِلُ خُلُقِهِ الْعَظِيمِ: مَا فَسَّرَتْهُ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِمَنْ سَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»(٢).

وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ- لَهُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الْآيَةَ، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] الْآيَةَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ اتِّصَافِهِ ﷺ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْآيَاتِ الْحَاثَّاتِ عَلَىٰ كُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ؛ فَكَانَ لَهُ مِنْهَا أَكْمَلُهَا وَأَجَلُّهَا، وَهُوَ فِي كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْهَا فِي الذُّرْوَةِ الْعُلْيَا.

فَكَانَ ﷺ سَهْلًا لَيِّنًا، قَرِيبًا مِنَ النَّاسِ، مُجِيبًا لِدَعْوَةِ مَنْ دَعَاهُ، قَاضِيًا لِحَاجَةِ مَنِ اسْتَقْضَاهُ، جَابِرًا لِقَلْبِ مَنْ سَأَلَهُ، لَا يَحْرِمُهُ، وَلَا يَرُدُّهُ خَائِبًا، وَإِذَا أَرَادَ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْهُ أَمْرًا؛ وَافَقَهُمْ عَلَيْهِ، وَتَابَعَهُمْ فِيهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَحْذُورٌ.

وَإِنْ عَزَمَ عَلَىٰ أَمْرٍ؛ لَمْ يَسْتَبِدَّ بِهِ دُونَهُمْ، بَلْ يُشَاوِرُهُمْ وَيُؤَامِرُهُمْ، وَكَانَ يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَعْفُو عَنْ مُسِيئِهِمْ.

وَلَمْ يَكُنْ يُعَاشِرُ جَلِيسًا لَهُ إِلَّا أَتَمَّ عِشْرَةً وَأَحْسَنَهَا، فَكَانَ لَا يَعْبَسُ فِي وَجْهِهِ، وَلَا يُغْلِظُ عَلَيْهِ فِي مَقَالِهِ، وَلَا يَطْوِي عَنْهُ بِشْرَهُ، وَلَا يُمْسِكُ عَلَيْهِ فَلَتَاتِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ١» - السَّبْتُ ٢٨ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٢-٧-٢٠١٧م.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٤٦).

لِسَانِهِ، وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِمَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ جَفْوَةٍ، بَلْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ، وَيَحْتَمِلُهُ غَايَةَ الِاحْتِمَالِ ﷺ»(١). (*).

لَقَدْ جَمَعَ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعَ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ»(٣). (*/٢).

وَأَمَرَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **بِالِاقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، قَالَ رَبُّنَا** جَلَّ وَعَلَا: **﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: ٢١].

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فِي أَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَثِقَتِهِ بِاللهِ، وَثَبَاتِهِ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَصَبْرِهِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، وَقِتَالِهِ بِنَفْسِهِ، وَكُلِّ جُزْئِيَّاتِ سُلُوكِهِ فِي الْحَيَاةِ.. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِ قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ، وَخَصْلَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَىٰ وَيُقْتَدَىٰ بِهَا لِمَنْ كَانَ يُؤَمِّلُ مُرْتَقِبًا ثَوَابَ اللهِ،

---

(١) «**تفسير السعدي**» (٨٧٩) بتصرف يسير.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «قِرَاءَةُ تَفْسِيرِ السَّعْدِيِّ» (تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَمِ» - الثُّلَاثَاءُ ١١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣١هـ| ٢٦-١-٢٠١٠م.

(٣) «**معالم التنزيل**»: (٣/ ٣١٦)، و«**فتح الباري**»: (٨/ ٣٠٦).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ١» - السَّبْتُ ٢٨ مِنْ شَوَّالٍ ١٣٨هـ| ٢٢-٧-٢٠١٧م.

وَيَرْجُو السَّعَادَةَ الْخَالِدَةَ يَوْمَ الدِّينِ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ»(١).(*).

عِبَادَ اللهِ! لَقَدْ أَوْلَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ اهْتِمَامًا كَبِيرًا بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ الْمَثَلُ الْكَامِلُ، النَّبِيُّ ﷺ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ عَلَمًا عَلَىٰ الْأَخْلَاقِ، وَكَمَالِ الْقِيَمِ، وَشِيَمِ التَّصَوُّرِ الصَّحِيحِ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَنْ يُرِيدُهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ يَحْمِلُونَ الْهِدَايَةَ وَالسَّعَادَةَ وَالنُّورَ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.(*/٢).

وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ(٤).

---

(١) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص٤٢٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأحزاب: ٢١].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ مِنْ خُطْبَةِ: «أَخْلَاقُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ» - الْجُمُعَةُ ٢٩-٨-٢٠٠٣م.

(٤) أخرجه الترمذي في «الجامع»: (٤/ ٣٥٥، رقم ١٩٨٧)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/ ١٢، رقم ٢٦٥٥).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟**

قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَىٰ الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لَهُ(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**»(٢). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَأَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ** -الزَّعِيمُ هَاهُنَا: الضَّامِنُ- **بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ**(٣) -رَبَضُ الْجَنَّةِ: مَا حَوْلَهَا خَارِجًا عَنْهَا،

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب البيوع: باب من أنظر موسرا، (٢٠٧٧)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب المساقاة: باب فضل إنظار المعسر، (١٥٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب السنة: بَابُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، (٤٦٨٢)، والترمذي في «الجامع»: أبواب الرضاع: بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ عَلَىٰ زَوْجِهَا، (١١٦٢)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وصححه لغيره الألباني في «الصحيحة»: (١/ ٥٧٣، رقم ٢٨٤).

(٣) «في ربض الجنة»، أي: حوالي الجنة وأطرافها لا في وسطها.

تَشْبِيهًا بِالْأَبْنِيَةِ الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَتَحْتَ الْقِلَاعِ- **لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ** -أَيِ: الْجَدَلَ- **وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ»**(١). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.(*).

فَجَعَلَ الْبَيْتَ الْعُلْوِيَّ جَزَاءً لِأَعْلَىٰ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْأَوْسَطَ لِأَوْسَطِهَا، وَهُوَ تَرْكُ الْكَذِبِ، وَالْأَدْنَىٰ لِأَدْنَاهَا، وَهُوَ تَرْكُ الْمُمَارَاةِ؛ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ حَقٌّ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ هَذَا كُلِّهِ.(*/٢).

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ(٤) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، **أَنَّ سَعْدَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَهَا فَقَالَ:** «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

قَالَتْ: «أَلَيْسَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟».

قَالَ: «بَلَىٰ».

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب: بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، (٤٨٠٠)، من حديث: أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه.

والحديث حسنه بشواهده الألباني في «الصحيحة»: (١/ ٥٥٢ - ٥٥٦، رقم ٢٧٣)، وروي عن أنس وفضالة بن عبيد رضي الله عنهما، مرفوعا، بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ٢» - الْأَحَدُ ٢٩ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٣-٧-٢٠١٧م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ١» - السَّبْتُ ٢٨ مِنْ شَوَّالٍ ١٣٨هـ| ٢٢-٧-٢٠١٧م.

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب صلاة المسافرين: باب جامع صلاة الليل،

قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».

وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»(١). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»(٢). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**».

قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟».

قَالَ: «**الْمُتَكَبِّرُونَ**»(٣). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.(*).

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق، (٤٧٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/ ٨، رقم ٢٦٤٣)، وروي عن أنس وأبي هريرة وأبي الدرداء وعلي بن أبي طالب وأبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، مرفوعا، بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في معالي الأخلاق، (٢٠١٨)، من حديث: جاب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال: «هذا حديث حسن غريب».
والحديث صححه الألباني في «الصحيحة»: (٢/ ٤١٨، رقم ٧٩١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ٢» - الْأَحَدُ ٢٩ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٣-٧-٢٠١٧م.

الثَّرْثَارُ: هُوَ كَثِيرُ الْكَلَامِ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ دِينِيَّةٍ، **وَالْمُتَشَدِّقُ**: الْمُتَكَلِّمُ بِمِلْءِ فِيهِ تَفَاصُحًا وَتَعَاظُمًا وَتَطَاوُلًا، وَإِظْهَارًا لِفَضْلِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْفَهْقِ، وَهُوَ الِامْتِلَاءُ. وَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الْبِرَّ: هُوَ حُسْنُ الْخُلُقِ؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ، وَالْإِثْمِ؟

فَقَالَ: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**».

فَقَابَلَ الْبِرَّ بِالْإِثْمِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْبِرَّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمَ حَوَّازُ الصُّدُورِ، أَيْ: مَا يَحِيكُ فِيهَا.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ، وَهُوَ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ، وَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا قَابَلَهُ بِالْإِثْمِ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالدَّارِمِيُّ، وَأَبُو يَعْلَىٰ، وَالطَّبَرَانِيُّ، وَهُوَ حَسَنٌ صَحِيحٌ[2].

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب البر: باب تفسير البر والإثم، (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (٤/ ٢٢٧ و٢٢٨)، والدارمي: (٢٥٧٥)، وأبو يعلىٰ: (١٥٨٦ و١٥٨٧)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (٢٢/ ١٤٧-١٤٨، رقم٤٠٢ و٤٠٣)، من حديث: وابصة بن معبد الأسدي رضي الله عنه.

والحديث حسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٢/ ٣٢٣، رقم١٧٣٤).

وَقَدْ فُسِّرَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِأَنَّهُ الْبِرُّ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ: طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ، وَالْإِثْمَ حَوَّازُ الصُّدُورِ، وَمَا حَاكَ فِيهَا وَاسْتَرَابَتْ بِهِ، وَهَذَا غَيْرُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَسُوئِهِ فِي عُرْفِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.(*).

وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ(٢) **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿**خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللهُ -يَعْنِي: هَذِهِ الْآيَةَ- إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ».

وَعَنْهُ -أَيْضًا- قَالَ: «أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ»(٣) أَوْ كَمَا قَالَ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟

فَقَالَ: «**تَقْوَىٰ اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ**».

وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟

فَقَالَ: «**الْفَمُ، وَالْفَرْجُ**»(٤). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ١» - السَّبْتُ ٢٨ مِنْ شَوَّالٍ ١٣٨هـ| ٢٢-٧-٢٠١٧م.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب التفسير: سورة الأعراف: باب ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ..﴾، (٤٦٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب التفسير: سورة الأعراف: باب ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ..﴾، (٤٦٤٤).

(٤) تقدم تخريجه.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) -**وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ**- **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ**: «لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَىٰ هَذَا الْوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ ائْتِنِي».

فَانْطَلَقَ الْأَخُ حَتَّىٰ قَدِمَهُ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أَبِي ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ: «رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ». الْحَدِيثَ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**»(٢).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»(٣). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب مناقب الأنصار: باب إسلام أبي ذر الغفاري، (٣٨٦١)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي ذر، (٢٤٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق، (٤٧٩٩)، والترمذي في «الجامع»: كتاب البر: باب ما جاء في حسن الخلق، (٢٠٠٢ و٢٠٠٣).

وفي رواية -عند الترمذي- زاد: «...، **وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**»، وفي أخرىٰ له: «...، **وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وأقره ابن حجر في «فتح الباري»: (١٠/ ٤٥٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (٢/ ٥٣٥، رقم٨٧٦).

(٣) تقدم تخريجه.

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ».

قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «فَخَرَجْتُ حَتَّىٰ أَمُرَّ عَلَىٰ صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ».

فَقَالَ: «**يَا أُنَيْسُ! اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ**».

قُلْتُ: «نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ».

قَالَ أَنَسٌ: «وَاللهِ! لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُ: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَىٰ اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّىٰ تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**»(٢). أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب حسن الخلق والسخاء..، (٦٠٣٨)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل: باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، (٢٣٠٩).

وفي رواية -عند أحمد في «المسند» (٣/ ٢٣١، رقم ١٣٤١٨)- زاد: «...، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال: «دعوه، فلو قدر -أو قال: لو قضي- أن يكون كان».

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الاستئذان: بَابُ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَا بَأْسَ..، (٦٢٩٠)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب السَّلَامِ: بَابُ تَحْرِيمِ مُنَاجَاةِ الِاثْنَيْنِ دُونَ الثَّالِثِ بِغَيْرِ رِضَاهُ، (٢١٨٤).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟**».

قَالُوا: «بَلَىٰ».

قَالَ: «**صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**»(١). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَىٰ النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ**(٢)**؟ عَلَىٰ كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ**(٣) **سَهْلٍ**(٤)»(٥). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب: باب في إصلاح ذات البين، (٤٩١٩)، والترمذي في «الجامع»: كتاب الرقاق: باب٥٦، (٢٥٠٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

والحديث صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/ ٧٠، رقم٢٨١٤).

(٢) «حرم علىٰ النار»، أي: يمنع عنها.

(٣) «كل هين لين»، أي: كل موقرا رفيقا لغيره.

(٤) «سهل»، أي: في قضاء حوائجهم.

(٥) أخرجه الترمذي في «الجامع»: كتاب الرقائق: باب٤٥، (٢٤٨٨)، وأحمد في «المسند»: (١/ ٤١٥).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه بشواهده الألباني في «الصحيحة»: (٢/ ٦١١، رقم ٩٣٨).

وَعَنْ أَبِي هُبَيْرَةَ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو الْمُزَنِيِّ -وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ رضي الله عنه-، **أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَىٰ عَلَىٰ سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا:** «وَاللهِ! مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟!».

فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ**».

فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: «يَا إِخْوَتَاهُ! آغْضَبْتُكُمْ؟».

قَالُوا: «لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أُخَيَّ»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ؛ الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل سلمان...، (٢٥٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان: باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله...، (١٧).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب الجنة: باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٢٨٦٥).

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ** -أَيْ: يُعْطِيَكَ-، **وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَىٰ مُعْسِرًا؛ قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْطَبِرُونَ عَلَىٰ الْأَذَىٰ، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ..﴾ [آل عمران: ١٨٦] الْآيَةَ، **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ..﴾ [البقرة: ١٠٩] الْآيَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ حَتَّىٰ أَذِنَ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِيهِمْ..». الْحَدِيثَ(٣). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الذبائح: باب المسك، (٥٥٣٤)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب البر: باب استحباب مجالسة..، (٢٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب البيوع: باب من أنظر معسرا، (٢٠٧٨)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب المساقاة: باب فضل إنظار المعسر، (١٥٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب التفسير: سورة آل عمران: باب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾، (٤٥٦٦)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الجهاد: باب في دعاء النبي ﷺ إلىٰ الله...، (١٧٩٨).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا؛ وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَ«**لَا يَفْرَكُ**» أَيْ: لَا يُبْغِضُهَا بُغْضًا مُصْمَتًا يُؤَدِّي بِهِ إِلَىٰ تَرْكِهَا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَىٰ ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ! لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»(٤). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب البر: باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب الهجرة، (٦٠٧٧)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب البر: باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، (٢٥٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب الرضاع: باب الوصية بالنساء، (١٤٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب البر: باب فضل إزالة الأذىٰ عن الطريق، (١٩١٤).

(٥) أخرجه الترمذي في «الجامع»: كتاب البر: باب ما جاء في الرفق، (٢٠١٣)، وقال: «وفي الباب عن عائشة، وجرير بن عبد الله، وأبي هريرة وهذا حديث حسن صحيح»، وأقره =

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»(١). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»(٢). (*).

=

الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (١٠/ ٤٤٩)، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/ ١٥، رقم٢٦٦٧).

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الزكاة: بَابُ عَطِيَّةِ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ، (١٦٧٢)، والنسائي في «المجتبىٰ»: كتاب الزكاة: مَنْ سَأَلَ بِاللهِ، (٢٥٦٧).

والحديث صححه الألباني في «صحيح أبي داود»: (٥/ ٣٦٣، رقم ١٤٦٩)، وروي عن عَائِشَةَ وطَلْحَةَ والْحَكَمِ بْنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، مرفوعا، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا، (٦١٢٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ٢» - الْأَحَدُ ٢٩ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٣-٧-٢٠١٧م.

الْمَثَلُ التَّطْبِيقِيُّ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي حَيَاةِ نَبِيِّنَا ﷺ يَجِدُ أَنَّهَا تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقِيَمِهِ السَّامِيَةِ الَّتِي تَتَّسِقُ، وَالْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ؛ فَتَقُولُ فِيهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِتَصِفَ خُلُقَهُ عِنْدَمَا قِيلَ: مَا كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

تَقُولُ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ﷺ»(١).

الَّذِي يَدْعُو إِلَىٰ أَمْرٍ يَتَخَلَّفُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ غَايَتِهِ عَلَىٰ حَسَبِ تَخَلُّفِهِ بِأَخْذِهِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ.

الْإِسْلَامُ قِيَمٌ وَمُثُلٌ وَأَخْلَاقٌ وَمَبَادِئُ عِظَامٌ فِي السَّمَاءِ؛ بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يُحْيِي بِهِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَوَاتَ الْأَنْفُسِ.

النَّبِيُّ ﷺ جَاءَ بِهَذَا كُلِّهِ، وَكُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ هَذَا كُلِّهِ بِجُمْلَتِهِ وَتَفْصِيلِهِ يَقَعُ دُونَ الْغَايَةِ عَلَىٰ حَسَبِ تَخَلُّفِهِ عَنِ الْأَخْذِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ وَمِنْ مَبَادِئِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَاءَ بِالْمَنْهَجِ وَهُوَ فِي عَيْنِ الْوَقْتِ هُوَ الْمَنْهَجُ ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه.

وَلِذَا تَعْجَبُ الْعَجَبَ كُلَّهُ عِنْدَمَا تَتَأَمَّلُ فِي مُعْجِزَةِ النَّبِيِّ ﷺ الْكُبْرَىٰ، وَفِي آيَتِهِ الْعُظْمَىٰ: فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْبَاقِيَةُ عَلَىٰ الدَّهْرِ، هُوَ الْآيَةُ الْخَالِدَةُ عَلَىٰ وَجْهِ الزَّمَانِ، لَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ، وَلَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تُحَرَّفُ، وَلَا تُشَوَّهُ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهَا، وَلَا يُزَادُ فِيهَا.

تَعْجَبُ! كُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ يَأْتِي بِمَنْهَجٍ يَدْعُو إِلَيْهِ، وَمُعْجِزَةٍ تَقُومُ بُرْهَانًا عَلَىٰ مَنْهَجِهِ؛ إِلَّا مُحَمَّدًا يَأْتِي بِمَنْهَجٍ هُوَ عَيْنُ الْمُعْجِزَةِ، وَبِمُعْجِزَةٍ هِيَ عَيْنُ الْمَنْهَجِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

مُعْجِزَتُهُ الْكُبْرَىٰ مَنْهَجُهُ، وَمَنْهَجُهُ الْأَعْظَمُ مُعْجِزَتُهُ الْكُبْرَىٰ، مَنْهَجٌ فِي مُعْجِزَةٍ، وَمُعْجِزَةٌ فِي مَنْهَجٍ، وَالرَّسُولُ قَائِمٌ بِالْمُعْجِزَةِ وَالْمَنْهَجِ فِي شَخْصِهِ وَذَاتِهِ فِي آنٍ، بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي وَنَفْسِي ﷺ.(*).

عَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَتْ**: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ أَبِي وَعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَنَهْ سَنَهْ**».

قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَهِيَ بِالْحَبَشِيَّةِ: حَسَنَةٌ حَسَنَةٌ.

قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَزَبَرَنِي -أَيْ: نَهَرَنِي وَزَجَرَنِي- أَبِي.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي**».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ مِنْ خُطْبَة: «أَخْلَاقُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ» - الْجُمُعَةُ ٢٩-٨-٢٠٠٣م.

قَالَ عَبْدُ اللهِ: «فَبَقِيَتْ حَتَّىٰ ذَكَرَ، يَعْنِي: مِنْ بَقَائِهَا»(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه **قَالَ: قَالُوا**: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا».

قَالَ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»(٣). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، **أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ** ﷺ، **فَقَالُوا**: «السَّامُ عَلَيْكُمْ»، وَالسَّامُ: الْمَوْتُ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ».

قَالَ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ! عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**».

قَالَتْ: «أَوَ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟!».

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب من ترك صبية غيره حتىٰ تلعب به...، (٥٩٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الوضوء: باب صب الماء علىٰ البول في المسجد، (٢٢٠)، والحديث في الصحيحين بنحوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرج الترمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في المزاح، (١٩٩٠).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن»، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (٤/ ٣٠٤، رقم ١٧٢٦)، وفي مختصر «الشمائل»: (ص ١٢٦، رقم ٢٠٢)

قَالَ: «**أَوَ لَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟! رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»(٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ صَبِيًّا فِي حِجْرِهِ يُحَنِّكُهُ، فَبَالَ عَلَيْهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ -أَيْ: رَجَعَ- رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ -يَعْنِي: وَقْتَ الْقَيْلُولَةِ- فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الجهاد: باب الدعاء علىٰ المشركين بالهزيمة والزلزلة، (٢٩٣٥)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب السلام: باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام..، (٢١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: بَابُ الكِبْرِ، (٦٠٧٢).

وفي رواية -عند ابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد: باب البراءة من الكبر والتواضع، (٤١٧٧)-: «إِنْ كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا حَتَّىٰ تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي حَاجَتِهَا».

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب وضع الصبي في الحجر، (٦٠٠٢)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الطهارة: باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، (٢٨٦).

فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي** -أَيْ: سَلَّهُ مِنْ غِمْدِهِ- **وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا** -أَيْ: مُنْجَرِدًا-».

فَقَالَ: «مَا يَمْنَعُكَ مِنِّي؟».

فَقُلْتُ: «**اللهُ**» ثَلَاثًا، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ، وَجَلَسَ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رضي الله عنه **قَالَ**: أَهْدَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِـ(وَدَّانَ)، فَرَدَّهُ عَلَيَّ، فَلَمَّا رَأَىٰ مَا فِي وَجْهِي قَالَ: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟

فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ شَمْلَةٌ.

فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا.

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَكْسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا، فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَاكْسُنِيهَا.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب المغازي: باب غزوة بني المصطلق، (٤١٣٩)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب صلاة المسافرين: باب صلاة الخوف، (٨٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب جزاء الصيد: باب إذا أهدىٰ للمحرم حمارا وحشيا حيا لم يقبل، (١٨٢٥)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الحج: باب تحريم الصيد للمحرم، (١١٩٣).

فَقَالَ: «**نَعَمْ**».

فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَامَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ.

فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ؛ لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسِسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ»(٢). وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَ بَعْضَهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَخْرَجَ بَعْضَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما **قَالَ**: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الْأُولَىٰ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، (٦٠٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الصيام: باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره، (١٩٧٣)، وفي كتاب الوصايا: باب استخدام اليتيم في السفر والحضر...، (٢٧٦٨)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب المساجد: باب جواز الجماعة في النافلة، (٦٥٩)، وفي كتاب الفضائل: باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، (٢٣٠٩).

وَاحِدًا وَاحِدًا، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ»(١). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَالْجُؤْنَةُ: الْإِنَاءُ الَّذِي يُعَدُّ فِيهِ الطِّيبُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه **قَالَ**: «قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ -قَالَ: أَحْسَبُهُ فَطِيمًا-، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**».

نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلَاةَ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ وَيُنْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ وَنَقُومُ خَلْفَهُ، فَيُصَلِّي بِنَا»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل: باب طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه، (٢٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (٥٩٩٧)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل: باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، (٢٣١٨).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب الانبساط إلىٰ الناس، (٦١٢٩)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الآداب: باب استحباب تحنيك المولود...، (٢١٥٠).

وَالنُّغَيْرُ: طَائِرٌ صَغِيرٌ يُشْبِهُ الْعُصْفُورَ.

وَعَنِ ابْنِ أَبِي مُوسَىٰ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَىٰ شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ فِيهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الزكاة: باب من أحب تعجيل الصدقة من (١٤٣٢)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب البر: باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، (٢٦٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب أحاديث الأنبياء: باب الغار، (٣٤٧٧)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الجهاد: باب غزوة أحد، (١٧٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ، (٣٥٦٢)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل: باب كثرة حيائه ﷺ، (٢٣٢٠).

مُحَمَّدُ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟».

قَالَتْ: «كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»(٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَ«**مِهْنَةُ أَهْلِهِ**» يَعْنِي: الصَّنْعَةَ، وَالْمُرَادُ: كَانَ فِي شُغُلِ أَهْلِهِ وَحَوَائِجِهِمْ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا عَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَعَامًا قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب فرض الخمس: باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، (٣١٤٩)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الزكاة: باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، (١٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب: باب كيف يكون الرجل في أهله، (٦٠٣٩).

وفي رواية -عند أحمد (٦/ ١٠٦ و ١٢١)-: «كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ»، وفي أخرىٰ له (٦/ ٢٥٦): «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ».

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ، (٣٥٦٣)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الأشربة: باب لا يعيب الطعام، (٢٠٦٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ**: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ**: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ؛ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا للهِ»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا الْتَقَمَ أُذُنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ، وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ».

وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ؛ لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْزِعُ، وَلَا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ، (٣٥٦٠)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل: باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله...، (٢٣٢٨).

(٢) تقدم تخريجه.

حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَصْرِفُهُ، وَلَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ»(١). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَذَا كَانَ أَصْحَابُهُ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ؛ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا.

فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ؛ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ.

قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِي يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب: باب في حسن العشرة، (٤٧٩٤)، من طريق: مبارك بن فضالة، عن ثابت البناني، والترمذي في «الجامع»: كتاب الرقاق: باب٤٦، (٢٤٩٠)، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الأدب: باب إكرام الرجل جليسه، (٣٧١٦)، من طريق: زيد العمىٰ، كلاهما: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وصححه بمجموع طرقه الألباني في «الصحيحة»: (٥/ ٦٣٥، رقم٢٤٨٥).

فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿**خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ»، وَاللهِ! مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا»(١).(*).

٭٭٭

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب التفسير: سورة الأعراف: باب ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، (٤٦٤٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ٢» - الْأَحَدُ ٢٩ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٣-٧-٢٠١٧م.

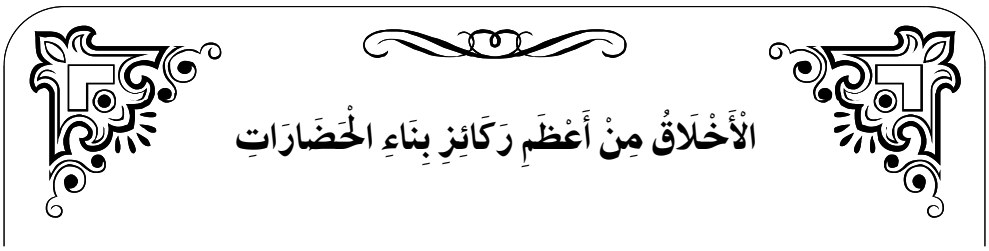

الْأَخْلَاقُ مِنْ أَعْظَمِ رَكَائِزِ بِنَاءِ الْحَضَارَاتِ

إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ مِنْ أَهَمِّ رَكَائِزِ قِيَامِ الدُّوَلِ وَالْحَضَارَاتِ، وَاسْتِقْرَارُ الدُّوَلِ وَدَوَامُهَا يَعُودُ إِلَى مَدَى تَمَسُّكِهَا بِالْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَالْقِيَمِ النَّبِيلَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَقَدْ سَجَّلَ التَّارِيخُ بِحُرُوفٍ مِنْ نُورٍ النَّجَاشِيَّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ الَّذِي اشْتُهِرَ بِالْعَدْلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؛ فَلَمَّا حَلَّ الْأَذَىٰ بِسَاحَةِ الْأَصْحَابِ رضي الله عنهم أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ بِهَا مَلِكًا عَادِلًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ.

فَهَاجَرَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَنْ هَاجَرَ، ثُمَّ سَعَتْ قُرَيْشٌ سِعَايَتَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَرُدَّ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ أَجْلِ فِتْنَتِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ؛ فَثَبَّتَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ النَّجَاشِيَّ -طَيَّبَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ثَرَاهُ وَأَحْسَنَ فِي الْجَنَّةِ مَثْوَاهُ-، إِذْ أَسْلَمَ بَعْدُ قَلْبَهُ وَزِمَامَهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَبِعَ النَّبِيَّ الْأَمِينَ ﷺ[1]،

---

(١) فقد أخرج البخاري (٣٨٨٠، و٣٨٨١) ومواضع، ومسلم (٩٥١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: نَعَىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الحَبَشَةِ، فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ**».

فَثَبَّتَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ فَلَمْ تَبْلُغْ قُرَيْشٌ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا(١). (*).

وَقَدْ أَسَّسَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْظَمَ حَضَارَةٍ فِي التَّارِيخِ لِخَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالْمُثُلِ السَّامِيَةِ؛ فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي حَدِيثِ هِجْرَةِ الْحَبَشَةِ مِنْ كَلَامِ جَعْفَرٍ فِي مُخَاطَبَةِ النَّجَاشِيِّ، فَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ صِدْقَهُ وَنَسَبَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ؛ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ.

وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، قال: فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (ص ٢١٣)، ومن طريقه: ابن هشام في «السيرة» (١/ ٣٣٤)، وأحمد (١٧٤٠، و٢٢٤٩٨)، وابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ٢٢٦٠)، وغيرهم، بإسناد صحيح، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: «لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ،...»، الحديث.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «دُرُوسٌ مِنَ الْهِجْرَةِ» - ١٦ - ٥ - ١٩٩٧م

مَا جَاءَ بِهِ»(١). الْحَدِيثَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ شَاكِرٌ وَغَيْرُهُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ جَمِيعًا-.(*).

إِنَّ الْأُمَمَ وَالْحَضَارَاتِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُبْنَى بِنَاءً سَدِيدًا إِلَّا إِذَا اعْتَمَدَتْ فِي أُسُسِ بِنَائِهَا عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَلَا تَتَقَدَّمُ أُمَّةٌ بِدُونِ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ بُنْيَانُهَا بِدُونِ الِانْضِبَاطِ السُّلُوكِيِّ، وَلَا تَقْوَى بِدُونِ التَّآخِي وَالتَّآلُفِ وَالتَّكَاتُفِ؛ فَالْأُمَّةُ الْوَاحِدَةُ تُشْبِهُ الْجَسَدَ الْوَاحِدَ الَّذِي يَتَعَاوَنُ أَعْضَاؤُهُ عَلَى خِدْمَتِهِ وَسَلَامَتِهِ، وَلَا يَكْتَمِلُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِالتَّحَابِّ وَالتَّآلُفِ وَالتَّعَاوُنِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

فَالْبِرُّ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَأَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، مِنَ التَّحَقُّقِ بِعَقَائِدِ الدِّينِ وَأَخْلَاقِهِ، وَالْعَمَلِ بِآدَابِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، مِنَ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَمِنَ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، وَمِنَ التَّعَاوُنِ عَلَىٰ الجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا؛ فَكُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي التَّعَاوُنِ عَلَىٰ الْبِرِّ.

---

(١) جزء من حديث طويل في الهجرة إلىٰ الحبشة؛ أخرجه أحمد في «**المسند**»: (١/ ٢٠١-٢٠٢) و(٥/ ٢٩٠-٢٩١)، والبيهقي في «**السنن الكبرىٰ**»: (٩/ ٩ و١٤٤)، وفي «**الدلائل**»: (٢/ ٣٠١-٣٠٦).

والحديث جود إسناده الألباني في «**الصحيحة**»: (٧/ ٥٧٨، رقم ٣١٩٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «مِصْرُ وَخِيَانَةُ الْأَمَانَةِ» - الْجُمُعَةُ ١٨ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٦هـ| ٥-٦-٢٠١٥م.

وَمِنَ التَّعَاوُنِ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ: التَّعَاوُنُ عَلَىٰ اجْتِنَابِ وَتَوَقِّي مَا نَهَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَمِنَ الْإِثْمِ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَالْقَوْلِ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ؛ بَلْ عَلَىٰ تَرْكِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.(*).

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(٢).(*/٢).

لَقَدْ مَثَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ بِالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَهَذَا هُوَ الْمِثَالُ الصَّحِيحُ لِكُلِّ شَعْبٍ مُؤْمِنٍ، أَنْ يَتَعَاوَنَ أَفْرَادُهُ فِي إِقَامَةِ بِنَائِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْغَرَضُ تَشْيِيدَ هَذَا الْبِنَاءِ وَتَمَاسَكَهُ وَتَرَاصَّهُ، بِحَيْثُ يُكَمِّلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُقَوِّمُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا إِيمَانَ كَامِلَ مَعَ التَّفَرُّقِ، وَلَا بِنَاءَ مُحْكَمٌ مَعَ التَّفَكُّكِ.

أَرَأَيْتُمْ لَوْ أُخِذَ مِنَ الْبِنَاءِ لَبِنَةٌ؛ أَلَا يَنْقُصُ هَذَا الْبِنَاء؟! فَكَيْفَ إِذَا كَانَتِ اللَّبِنَاتُ مُتَنَاثِرَةً مُتَنَافِرَةً، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَهْدِمُ الْأُخْرَىٰ وَتُزَلْزِلُهَا؟!!(*/٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ: «التَّعْلِيقِ عَلَىٰ رِسَالَةِ: وُجُوبُ التَّعَاوُنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ».

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١ و ٢٤٤٦ و ٦٠٢٦)، ومسلم (رقم ٢٥٨٥)، من حديث: أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، بلفظ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»، ونحوه في «الصحيحين» أيضا من حديث: النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ**».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «أَيُّهَا الْمِصْرِيُّونَ! لَا عُذْرَ لَكُمْ!!» - ٢٩ مِنْ صَفَر ١٤٣٧هـ| ١١- ١٢- ٢٠١٥م.

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «التَّحْذِيرُ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَحُقُوقُ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ أَخِيهِ» - الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ - الثُّلَاثَاءُ ٢٥ مِنْ صَفَر ١٤٣٩هـ| ١٤-١١-٢٠١٧م (كَلِمَةٌ لِإِخْوَانِنَا فِي لِيبيَا).

وَيَقُولُ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّىٰ**»(١).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبُنْيَانَ وَأَنَّ الْجَسَدَ شَيْءٌ وَاحِدٌ مُتَمَاسِكٌ، لَيْسَ فِيهِ تَفَرُّقٌ؛ لِأَنَّ الْبُنْيَانَ إِذَا تَفَرَّقَ سَقَطَ، كَذَلِكَ الْجِسْمُ، إِذَا تَفَرَّقَ فَقَدَ الْحَيَاةَ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ الِاجْتِمَاعِ، وَأَنْ نَكُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً، أَسَاسُهَا التَّوْحِيدِ، وَمَنْهَجُهَا دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسَارُهَا عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.(*).

وَيَقُولُ ﷺ: «**وَلَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٣).

لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم إِيمَانًا صَحِيحًا كَامِلًا مُعْتَبَرًا فِي مِيزَانِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.(*/٢).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦)، من حديث: النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، بلفظ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ**»، وفي رواية للبخاري: «**تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ**،... » الحديث، وفي رواية لمسلم: «**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَىٰ رَأْسُهُ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ**»، وفي رواية له أيضا: «**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنِ اشْتَكَىٰ عَيْنُهُ اشْتَكَىٰ كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَىٰ رَأْسُهُ اشْتَكَىٰ كُلُّهُ**».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «أَيُّهَا الْمِصْرِيُّونَ! لَا عُذْرَ لَكُمْ!!» - ٢٩ مِنْ صَفَر ١٤٣٧هـ| ١١-١٢-٢٠١٥م.

(٣) تقدم تخريجه.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «مَا صَحَّ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٢٥هـ| ٢٤-٩-٢٠٠٤م.

إِنَّ التَّحَلِّيَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ صِمَامُ أَمَانِ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الِانْحِلَالِ وَالْفَوْضَى وَالضَّيَاعِ، وَبِزَوَالِهَا تَسْقُطُ الْأُمَمُ، فَكَمْ مِنْ حَضَارَاتٍ انْهَارَتْ بِتَرَدِّي أَخْلَاقِهَا، وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَمَاذِجَ لِأُمَمٍ هَلَكَتْ بِسَبَبِ بُعْدِهَا عَنِ الْأَخْلَاقِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وَكَذَلِكَ مَا فَعَلَ اللهُ بِقَوْمِ نُوحٍ حِينَ كَذَّبُوا نُوحًا عليه السلام، وَفَسَقُوا عَنْ أَمْرِ اللهِ؛ فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِالْمَاءِ الْمُنْهَمِرِ، فَأَغْرَقَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ [عَنْ آخِرِهِمْ]، وَلَمْ يُبْقِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، وَهَذِهِ عَادَةُ اللهِ وَسُنَّتُهُ فِيمَنْ عَصَاهُ(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

«هَذَا تَفْصِيلٌ لِقِصَّةِ هَاتَيْنِ الْأُمَّتَيْنِ؛ عَادٍ، وَثَمُودَ، فَأَمَّا عَادٌ فَكَانُوا -مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللهِ، وَجَحْدِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ، وَكُفْرِهِمْ بِرُسُلِهِ- مُسْتَكْبِرِينَ فِي الْأَرْضِ، قَاهِرِينَ لِمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، ظَالِمِينَ لَهُمْ، قَدْ أَعْجَبَتْهُمْ قُوَّتُهُمْ، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، قَالَ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فَلَوْلَا خَلْقُهُ إِيَّاهُمْ لَمْ يُوجِدُوا، فَلَوْ نَظَرُوا إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ نَظَرًا صَحِيحًا، لَمْ يَغْتَرُّوا بِقُوَّتِهِمْ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ عُقُوبَةً، تُنَاسِبُ قُوَّتَهُمُ، الَّتِي اغْتَرُّوا بِهَا.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨١١).

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾؛ أَيْ: رِيحًا عَظِيمَةً مِنْ قُوَّتِهَا وَشِدَّتِهَا، لَهَا صَوْتٌ مُزْعِجٌ كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ، فَسَخَّرَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَىٰ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، نَحِسَاتٍ فَدَمَّرَتْهُمْ وَأَهْلَكَتْهُمْ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ، وَقَالَ هُنَا: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الَّذِي اخْتَزُوا بِهِ وَافْتَضَحُوا بَيْنَ الْخَلِيقَةِ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أَيْ: لَا يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا يَنْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ»(١).

وَيَقُولُ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٧٤٦).

«أَرْسَلَ اللهُ لُوطًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَكَانُوا مَعَ شِرْكِهِمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ فِي الذُّكُورِ وَتَقْطِيعِ السَّبِيلِ، وَفُشُوِّ الْمُنْكَرَاتِ فِي مَجَالِسِهِمْ، فَنَصَحَهُمْ لُوطٌ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ قَبَائِحَهَا فِي نَفْسِهَا، وَمَا تَؤُولُ إِلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ الْبَلِيغَةِ، فَلَمْ يَرْعَوُوا وَلَمْ يَذَّكَّرُوا، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

فَأَيِسَ مِنْهُمْ نَبِيُّهُمْ، وَعَلِمَ اسْتِحْقَاقَهُمُ الْعَذَابَ، وَجَزِعَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ وَ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، فَأَرْسَلَ الْمَلَائِكَةَ لِإِهْلَاكِهِمْ، فَمَرُّوا بِإِبْرَاهِيمَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَبَشَّرُوهُ بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ يُرِيدُونَ؟ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطٍ، فَجَعَلَ يُرَاجِعُهُمْ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فَقَالُوا لَهُ: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ثُمَّ مَضَوْا حَتَّىٰ أَتَوْا لُوطًا، فَسَاءَهُ مَجِيئُهُمْ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا، بِحَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْهُمْ، وَظَنَّ أَنَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ الضُّيُوفِ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالُوا لَهُ: ﴿تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾؛ أَيْ: عَذَابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، فَأَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا قَلَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُتَتَابِعَةً حَتَّىٰ أَبَادَتْهُمْ وَأَهْلَكَتْهُمْ، فَصَارُوا سَمَرًا مِنَ الْأَسْمَارِ، وَعِبْرَةً مِنَ الْعِبَرِ..

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾؛ أَيْ: تَرَكْنَا مِنْ دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ آثَارًا بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ الْعِبَرَ بِقُلُوبِهِمْ، فَيَنْتَفِعُونَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٧]»(١).

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٦٣٠).

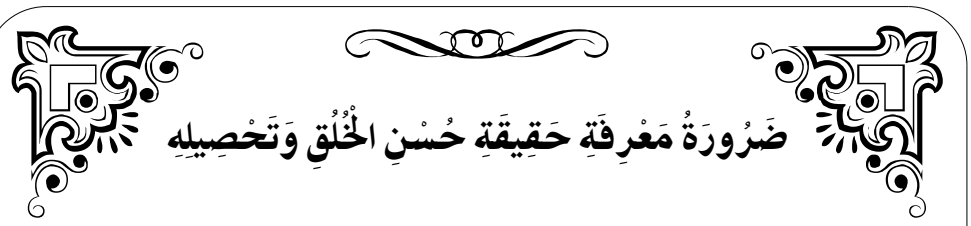

ضَرُورَةُ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ وَتَحْصِيلِهِ

عِبَادَ اللهِ! هَذَا الْأَمْرُ الْكَبِيرُ مِنْ أُمُورِ الشَّرِيعَةِ.. مِنْ أُمُورِ الشَّرِيعَةِ الْعِظَامِ وَمِنْ أُسُسِهَا الْكِبَارِ، حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»(١).

وَبَيَّنَ أَنَّ حَسَنَ الْخُلُقِ يَنَالُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا يَنَالُ الصَّائِمُ الْقَائِمُ، وَأَنَّ أَعْظَمَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا مَرَّ ذِكْرُهُ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَكَيْفِيَّةِ تَحْصِيلِهِ وَحِيَازَتِهِ.

وَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُمَرِّنَ أَنْفُسَنَا عَلَىٰ تَحْسِينِ أَخْلَاقِنَا وَالْخُرُوجِ مِنْ مَسَاوِيهَا، مَعَ طَلَبِ ذَلِكَ مِنْ رَبِّنَا بِإِلْحَاحِ دُعَاءٍ وَاسْتِكَانَةٍ وَمَذَلَّةٍ للهِ جَلَّوَعَلَا؛ اللَّهُمَّ آتِنَا مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ، وَاهْدِنَا إِلَيْهَا لَا يَهْدِي لِأَحَاسِنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَقِنَا سَيِّءَ الْأَخْلَاقِ لَا يَقِي مِنْ سَيِّئِهَا إِلَّا أَنْتَ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَهُوَ الَّذِي حَسَّنَ اللهُ -تَعَالَىٰ- خُلُقَهُ وَتَمَّمَهُ وَكَمَّلَهُ حَتَّىٰ كَانَ مِنْهُ عَلَىٰ الْغَايَةِ وَمِنْهُ فِي نِهَايَةٍ- كَمَا كَانَ يَسْأَلُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِيُعَلِّمَنَا كَيْفَ نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ.

وَيَنْبَغِي عَلَىٰ أَتْبَاعِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ عَلَىٰ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يُعْرَفُوا بَيْنَ النَّاسِ بِحُسْنِ الْخُلُقِ؛ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِحَالِهِ أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي الْخَلْقِ

(١) تقدم تخريجه.

مِنَ الدَّاعِي النَّاسَ إِلَىٰ الدِّينِ بِمَقَالِهِ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ بِالْفَعَالِ أَبْلَغُ أَثَرًا مِنَ الدَّعْوَةِ بِالْمَقَالِ، وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُونَ تَطْبِيقَ الْفِعْلِ عَلَىٰ الْقَوْلِ، فَإِذَا تَخَلَّفَ الْفِعْلُ عَنِ الْقَوْلِ كَانَ صَدًّا عَنْ سَبِيلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ كُلِّ مُتَّبِعٍ لِمِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، سَالِكًا مَنْهَجَ السَّلَفِ، سَائِرًا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، مُتَأَسِّيًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، مُتَأَثِّرًا أَثَرَ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم.. يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي حِيَازَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ.(*).

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا حُسْنَ الْخُلُقِ، وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا سَيِّئَهَا وَمَرْذولَهَا بِمَنِّهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.(*/٢).

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَأَنْ يُدِيمَنَا عَلَيْهَا وَأَنْ يُدِيمَهَا عَلَيْنَا، حَتَّىٰ يَقْبِضَنَا عَلَيْهَا، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ مَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنَهَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.(*/٣).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ٢» - الْأَحَدُ ٢٩ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٣-٧-٢٠١٧م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «كَيْفَ تَكُونُ حَسَنَ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ؟» - الْأَحَدُ ١٧ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٤١هـ| ١٠-٥-٢٠٢٠م.

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُسْنُ الْخُلُقِ ٢» - الْأَحَدُ ٢٩ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ٢٣-٧-٢٠١٧م.

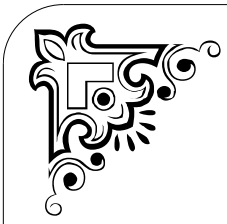

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:
نِعْمَةُ الذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ يَتَوَلَّىٰ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَالْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، **وَهُمْ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

الْمَالُ الْكَثِيرُ الْوَفِيرُ، وَالْبَنُونَ الْكَثِيرُونَ زِينَةُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَجْعَلُ لِلْعَبْدِ وَلَدًا صَالِحًا فِي الدُّنْيَا يَتَأَتَّىٰ مِنْهُ دُعَاءٌ صَالِحٌ فِي الْآخِرَةِ، يَصِلُ إِلَيْهِ فِيهَا أَجْرُهُ -بِفَضْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ- كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ** -مِنْهَا-: **أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو اللهَ لَهُ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (٣/ ١٢٥٥، رقم ١٦٣١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ الَّذِي يَتَأَتَّىٰ مِنَ الْوَلَدِ الصَّالِحِ بِالدُّعَاءِ لِأَبَوَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا هُوَ اسْتِمْرَارٌ لِحَيَاتِهِ هُوَ؛ كَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ.

فَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِلْمَرْءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَزُخْرًا لَهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفْعًا فِي الدَّرَجَاتِ.

وَهَذَا زَكَرِيَّا عليه السلام **سَأَلَ اللهَ وَلَدًا ذَكَرًا صَالِحًا** يَبْقَىٰ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَيَكُونُ وَلِيًّا مِنْ بَعْدِهِ، وَيَكُونُ نَبِيًّا مَرْضِيًّا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، وَهَذَا أَفْضَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَوْلَادِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ: أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا صَالِحًا جَامِعًا لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَامِدِ الشِّيَمِ، فَرَحِمَهُ رَبُّهُ، وَاسْتَجَابَ دَعْوَتَهُ.

فَبَشَّرَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ يَدِ الْمَلَائِكَةِ بِيَحْيَىٰ عليه السلام، وَسَمَّاهُ اللهُ لَهُ (يَحْيَىٰ)، وَكَانَ اسْمًا مُوَافِقًا لِمُسَمَّاهُ: يَحْيَا حَيَاةً حِسِّيَّةً، فَتَتِمُّ بِهِ الْمِنَّةُ، وَيَحْيَا حَيَاةً مَعْنَوِيَّةً، وَهِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ بِالْوَحْيِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٥-٧].

قَالَ زَكَرِيَّا عليه السلام: وَإِنِّي خِفْتُ أَقَارِبِي وَعَصَبَتِي أَلَّا يُحْسِنُوا خِلَافَتِي مِنْ بَعْدِ مَوْتِي، فَيُفْسِدُوا فِي مَرَاكِزِ السُّلْطَةِ الدِّينِيَّةِ، وَلَا أَجِدُ فِيهِمْ رَجُلًا صَالِحًا مُؤَهَّلًا لِأَنْ يَكُونَ وَارِثًا مُحَافِظًا عَلَىٰ شَرَائِعِ الدِّينِ وَتَعْلِيمَاتِهِ.

وَكَانَتِ امْرَأَتِي فِيمَا مَضَىٰ مِنْ عُمُرِهَا عَاقِرًا لَا تَلِدُ؛ فَأَعْطِنِي مِنْ مَحْضِ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ وَقُدْرَتِكَ الْبَاهِرَةِ وَارِثًا مِنْ ذُرِّيَّتِي، وَمُعِينًا يَتَوَلَّانِي، يَرِثُ الْعِلْمَ

وَالْقِيَامَ بِأُمُورِ الدِّينِ مِنْ بَعْدِي، وَيَرِثُ -مِنْ بَعْضِ آلِ يَعْقُوبَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ- النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ بَرًّا تَقِيًّا كَثِيرَ الرِّضَا عَنْكَ فِيمَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُكَ، مَرْضِيًّا عِنْدَكَ قَوْلًا وَفِعْلًا.

فَاسْتَجَابَ اللهُ -تَعَالَىٰ- دُعَاءَهُ؛ فَقَالَ: يَا زَكَرِيَّا! إِنَّا لِعَظِيمِ رُبُوبِيَّتِنَا نُبَشِّرُكَ بِوَلَدٍ ذَكَرٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ، لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِاسْمِهِ، وَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ شَبِيهًا فِي صِفَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ يَدْعُونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ قُرَّنَائِنَا -مِنْ أَصْحَابٍ وَزَوْجَاتٍ- وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ -أَيْ: تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنُنَا-.

دُعَاءٌ لِأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ فِي صَلَاحِهِمْ؛ فَإِنَّهُ دُعَاءٌ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّ نَفْعَهُ يَعُودُ عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا ذَلِكَ هِبَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: هَبْ لَنَا.

بَلْ دُعَاؤُهُمْ يَعُودُ إِلَىٰ نَفْعِ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ بِصَلَاحِ مَنْ ذُكِرَ يَكُونُ سَبَبًا لِصَلَاحِ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، وَيَنْتَفِعُ بِهِمْ.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللهَ -تَعَالَىٰ- أَنْ تَكُونَ أَزْوَاجُهُمْ وَذُرِّيَّاتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَىٰ.

وَبِذَلِكَ تَمْتَلِئُ قُلُوبُهُمْ سُرُورًا، وَيَكُونُونَ قُرَّةَ أَعْيُنٍ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيَطْمَحُونَ إِلَىٰ الِارْتِقَاءِ إِلَىٰ دَرَجَاتِ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ؛ حَتَّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً يُقْتَدَىٰ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ.

الْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي يُعْطِي الْعِبَادَ مِنَ

الْأَوْلَادِ مَا يَشَاءُ.

فَمِنَ الْخَلْقِ مَنْ يَهَبُ لَهُ إِنَاثًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهَبُ لَهُ ذُكُورًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُزَوِّجُهُ -أَيْ: يَجْمَعُ لَهُ ذُكُورًا وَإِنَاثًا-، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ، قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ**﴾ [الشورىٰ: ٤٩- ٥٠].

مِنْ خَلْقِ اللهِ: خَلْقُ الذُّرِّيَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ضِمْنَ نِظَامِ التَّنَاسُلِ.

يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا؛ فَلَا يُولَدُ لَهُ ذَكَرٌ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ؛ فَلَا يُولَدُ لَهُ أُنْثَىٰ، أَوْ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، فَيُولَدُ لَهُ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٠].

دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَبِّ هَبْ لِي وَلَدًا مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحًا مِنَ الصَّالِحِينَ، يَبْلُغُ أَوَانَ الْحُلُمِ.

فَأَجَبْنَا دَعْوَتَهُ، وَبَشَّرْنَاهُ بِابْنٍ يَتَحَلَّىٰ بِالْعَقْلِ، وَالْأَنَاةِ، وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ، فَوَلَدَتْ هَاجَرُ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنْ دَلَائِلِ عِظَمِ نِعْمَةِ الْأَوْلَادِ: اسْتِحْبَابُ الْبِشَارَةِ بِالْمَوْلُودِ؛ فَهَذَا الدِّينُ فِيهِ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ الْمَشَاعِرِ مَا فِيهِ!!

هَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ فِيهِ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَا فِيهِ.

فِي هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ اسْتِحْبَابُ الْبِشَارَةِ بِالْمَوْلُودِ وَكُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ،

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [مريم: ٧].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

وَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فَهَذِهِ الْبِشَارَةُ الَّتِي هِيَ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَىٰ قَلْبِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ مُسْتَحَبَّةٌ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

وَيُشْرَعُ لِلْمُبَشَّرِ أَنْ يُهْدِيَ لِلْمُبَشِّرِ شَيْئًا، كَمَا أَهْدَىٰ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ لِلرَّجُلِ الَّذِي بَشَّرَهُ بِالتَّوْبَةِ رِدَاءَهُ وَقَمِيصَهُ -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ؛ لِلْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»(١)-.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُحِبَّ الْخَيْرَ لِإِخْوَانِنَا، وَأَنْ نَسْعَىٰ بِالْبِشَارَةِ لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِخَيْرٍ، وَمَنْ آتَاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ رِزْقًا حَسَنًا.

وَمِنَ الدَّلَائِلِ -أَيْضًا- عَلَى أَنَّ الْأَوْلَادَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **وَهِبَةٌ: أَنَّهُ يَجُوزُ طَلَبُ الدُّعَاءِ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ لِلْوَلَدِ، وَيَجُوزُ الدُّعَاءُ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ مَعَ الْبَرَكَةِ فِيهِ؛** فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَتِي؛ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ لَنَا: «**أَلَا أُصَلِّي بِكُمْ**»؟

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٨/ ١١٣-١١٦، رقم ٤٤١٨)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ٢١٢٠-٢١٢٧، رقم ٢٧٦٩).

وَذَاكَ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: فَأَيْنَ جَعَلَ أَنَسًا مِنْهُ؟

فَقَالَ: جَعَلَهُ عَنْ يَمِينِهِ؟

ثُمَّ صَلَّىٰ بِنَا، ثُمَّ دَعَا لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَقَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللهِ! خُوَيْدِمُكَ ادْعُ اللهَ لَهُ.

فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، كَانَ فِي آخِرِ دُعَائِهِ أَنْ قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ**»(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ».

«**فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ**» **أَيْ**: فِي غَيْرِ وَقْتِ فَرِيضَةٍ.

«**فَأَيْنَ جَعَلَ أَنَسًا مِنْهُ؟**» يَعْنِي: لَمَّا كَانُوا مَعَهُ فِي الصَّلَاةِ.

«**وَأُمِّي**»: هِيَ أُمُّ سُلَيْمٍ.

«**خُوَيْدِمُكَ**»: صُغِّرَ؛ تَلَطُّفًا، وَطَلَبًا لِمَزِيدِ الشَّفَقَةِ لِصِغَرِهِ، وَلَمْ يُصَغَّرْ تَحْقِيرًا.

هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ ﷺ؛ فَقَدْ أَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَهُ لِأَنَسٍ خُوَيْدِمِهِ، قَالَ أَنَسٌ: «فَأَخْبَرَتْنِي ابْنَتِي أَنِّي قَدْ رُزِقْتُ مِنْ صُلْبِي بِضْعًا وَتِسْعِينَ، وَمَا أَصْبَحَ فِي الْأَنْصَارِ رَجُلٌ أَكْثَرَ مِنِّي مَالًا». أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»(٢)، وَهُوَ صَحِيحٌ كَمَا فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ»(٣).

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٦٦٠) (٢٤٨١)، وَأَبُو دَاوُدَ (٦٠٨)، مِنْ طَرِيقِ: ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، بِهِ.
(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٢٠٥٣) (١٢٩٥٣) (١٣٥٩٤) (٢٧٤٢٦).
(٣) (١٤١) (٢٢٤١) (٢٠٤١).

وَفِي لَفْظٍ: «وَذَكَرَ أَنَّ ابْنَتَهُ الْكُبْرَىٰ أَمِينَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ دُفِنَ مِنْ صُلْبِهِ إِلَىٰ مَقْدَمِ الْحَجَّاجِ نَيِّفٌ عَلَىٰ عِشْرِينَ وَمِئَةٍ»(١)، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مِنْ وَلَدِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: وَمِنْ وَلَدِ وَلَدِهِ عِشْرُونَ وَمِئَةٌ مِمَّنْ مَاتَ إِلَىٰ مَقْدَمِ الْحَجَّاجِ، وَقَدْ عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ رضي الله عنه، وَبَقِيَ لَهُ عَقِبٌ، فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ فِي دُعَائِهِ لِأَنَسٍ رضي الله عنه.

فَالْوَلَدُ قُرَّةُ الْعَيْنِ، أَيْ: سَبَبُ سُرُورٍ وَفَرَحٍ.

وَقَوْلُ الْعَرَبِ: «**أَقَرَّ اللهُ عَيْنَيْكَ**» أَيْ: أَبْرَدَ اللهُ دَمْعَةَ عَيْنَيْكَ، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ دَمْعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بَارِدَةٌ، وَأَنَّ دَمْعَةَ الْحُزْنِ سَخِينَةٌ، فَكَانُوا يَقُولُونَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ: «**أَقَرَّ اللهُ عَيْنَيْكَ**»، وَفِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِ: «**أَسْخَنَ اللهُ عَيْنَيْكَ**».

وَالدَّمْعُ هُوَ الدَّمْعُ، وَدَرَجَةُ حَرَارَتِهِ -لَا شَكَّ- وَاحِدَةٌ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ دَمْعِ الْفَرَحِ وَدَمْعِ الْحُزْنِ.

وَقِيلَ: «**أَقَرَّ اللهُ عَيْنَيْكَ**» أَيْ: بَلَّغَكَ اللهُ أُمْنِيَّتَكَ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ نَفْسُكَ، وَتَسْكُنَ عَيْنُكَ؛ فَتَقَرُّ مِنَ الْقَرَارِ لَا مِنَ الْبُرُودَةِ، حَتَّىٰ تَسْكُنَ عَيْنُكَ فَلَا تَسْتَشْرِفَ إِلَىٰ غَيْرِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ.

وَالْوَلَدُ الَّذِي تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ هُوَ الْوَلَدُ الصَّالِحُ، لَيْسَ كُلُّ وَلَدٍ بِقُرَّةِ عَيْنٍ.

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٢٠٥٣)، وَالْبُخَارِيُّ (١٩٨٢)، مِنْ طَرِيقِ: حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، بِهِ.

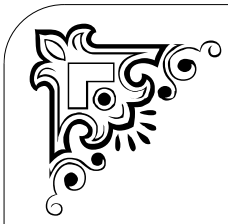

مِنْ ثَمَرَاتِ الذُّرِّيَّةِ وَفَوَائِدِهَا

إِنَّ الذُّرِّيَّةَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَمِنَّةٌ جَلِيلَةٌ مِنَ الْمَنَّانِ الْوَهَّابِ، وَلِلذُّرِّيَّةِ ثَمَرَاتٌ كَثِيرَةٌ وَفَوَائِدُ عَدِيدَةٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْأَوْلَادَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاسْتِمْرَارٌ لِحَسَنَاتِ الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ الْمَمَاتِ إِذَا كَانَتْ ذُرِّيَّةً مُوَحِّدَةً صَالِحَةً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

الْمَالُ الْكَثِيرُ الْوَفِيرُ وَالْبَنُونَ الْكَثِيرُونَ زِينَةُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ.(*).

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ: فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَجْعَلُ لِلْعَبْدِ وَلَدًا صَالِحًا فِي الدُّنْيَا يَتَأَتَّىٰ مِنْهُ دُعَاءٌ صَالِحٌ فِي الْآخِرَةِ يَصِلُ إِلَيْهِ فِيهَا أَجْرُهُ -بِفَضْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ- كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ** -مِنْهَا-: **أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو اللهَ لَهُ**»(٢).

(*) مَا مَرَّ؛ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الكهف: ٤٦].

(٢) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (٣/ ١٢٥٥، رقم ١٦٣١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**».

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ الَّذِي يَتَأَتَّىٰ مِنَ الْوَلَدِ الصَّالِحِ بِالدُّعَاءِ لِأَبَوَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا هُوَ اسْتِمْرَارٌ لِحَيَاتِهِ هُوَ، كَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ.(*).

فَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِلْمَرْءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَزُخْرًا لَهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفْعًا فِي الدَّرَجَاتِ.(*/٢).

* **وَمِنْ ثَمَرَاتِ الذُّرِّيَّةِ: أَنَّ بِهَا تَكْثِيرَ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْوِيَتَهُمْ**-؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣)؛ وَلِأَنَّ كَثْرَةَ الْأُمَّةِ عِزٌّ لَهَا، وَإِيَّاكَ وَقَوْلَ الْمَادِّيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَثْرَةَ الْأُمَّةِ تُوجِبُ الْفَقْرَ وَالْبَطَالَةَ، بَلْ إِنَّ الْكَثْرَةَ عِزٌّ امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَيْثُ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، وَذَكَّرَ شُعَيْبٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَوْمَهُ بِتِلْكَ الْكَثْرَةِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

فَكَثْرَةُ الْأُمَّةِ عِزٌّ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ أَرْضُهُمْ قَابِلَةً لِلْحِرَاثَةِ، وَالزِّرَاعَةِ، وَالصِّنَاعَةِ، بِحَيْثُ يَكُونُ فِيهَا مَوَادُّ خَامٌ لِلصِّنَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ -وَاللهِ- كَثْرَةُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «آدَابُ الزِّفَافِ وَأَحْكَامُهُ».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «نِعْمَةُ الزَّوَاجِ».

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «**السنن**»: (١/ ١٦٤، رقم ٤٩٠)، وأحمد في «**المسند**»: (٣/ ١٥٨ و٢٤٥)، وابن حبان في «**الصحيح**» بترتيب ابن بلبان: (٩/ ٣٣٨، رقم ٤٠٢٨)، والطبراني في «**المعجم الأوسط**»: (٥/ ٢٠٧، رقم ٥٠٩٩)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: (٤/ ٢١٩)، والبيهقي في «**السنن الكبرىٰ**»: (٧/ ٨١-٨٢)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ، وَيَنْهَىٰ عَنِ التَّبَتُّلِ نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ**،...» الحديث.

والحديث صححه بشواهده الألباني في «**إرواء الغليل**»: (٦/ ١٩٥، رقم ١٧٨٤).

الْأُمَّةِ سَبَبًا لِلْفَقْرِ وَالْبَطَالَةِ أَبَدًا.

*** مِنْ ثَمَرَاتِ الْأَوْلَادِ وَالذُّرِّيَّةِ: سَعَةُ الرِّزْقِ:**

الْإِنْسَانُ يَرَىٰ الرِّزْقَ يَنْفَتِحُ إِذَا وَلِدَ لَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ ذِي حَيَاةٍ تَمْشِي بِهُدُوءٍ رُوَيْدًا رُوَيْدًا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَكْبَرِ حَيَوَانٍ يَدِبُّ فِيهَا حَتَّىٰ أَصْغَرِ حَيَوانٍ كَالْفَيْرُوسَاتِ؛ إِلَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْزُقَهَا بِوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِهِ الَّتِي يَخْتَارُهَا.

وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ تَخَلُّصًا مِنْ أَزْمَةِ الْفَقْرِ الْوَاقِعِ، فَإِنِّي رَازِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ لِتَتَخَلَّصُوا مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ؛ خَوْفَ حُدُوثِ فَقْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، نَحْنُ نَتَكَفَّلُ بِرِزْقِ الْأَوْلَادِ وَرِزْقِ آبَائِهِمُ الْمُنْفِقِينَ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢](١). (*).

(١) «الشرح الممتع»: (١٢/ ١٦-١٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «الشَّرْحُ الْمُمْتِعُ شَرْحُ زَادِ الْمُسْتَقْنِعِ - كِتَابُ النِّكَاحِ» - الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ - الثُّلَاثَاءُ ٤ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَة ١٤٣١هـ/ ١٨-٥-٢٠١٠م. وَتَفْسِيرُ الْآيَاتِ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ».

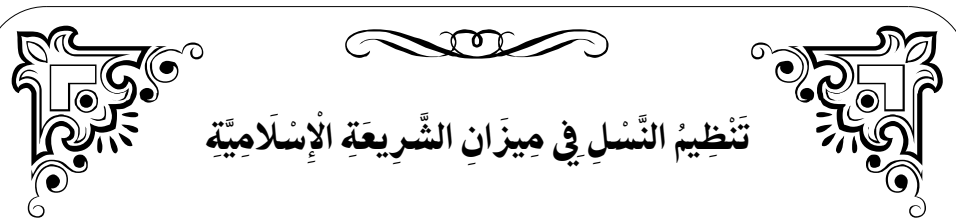

تَنْظِيمُ النَّسْلِ فِي مِيزَانِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

إِنَّ كَثْرَةَ الْأُمَّةِ عِزٌّ لَهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

فَإِيَّاكَ وَقَوْلَ الْمَادِّيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَثْرَةَ الْأُمَّةِ تُوجِبُ الْفَقْرَ وَالْبَطَالَةَ.

فَكَثْرَةُ الْأُمَّةِ عِزٌّ؛ لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَتْ أَرْضُهُمْ قَابِلَةً لِلْحِرَاثَةِ، وَالزِّرَاعَةِ، وَالصِّنَاعَةِ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ فِيهَا مَوَادُّ خَامٍ لِلصِّنَاعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَلَيْسَ -وَاللهِ- كَثْرَةُ الْأُمَّةِ سَبَبًا لِلْفَقْرِ وَالْبَطَالَةِ أَبَدًا!!

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ تَبْقَىٰ زَوْجَتِي شَابَّةً، فَلَا أُحِبُّ أَنْ تَلِدَ!!

فَنَقُولُ: هَذَا غَرَضٌ لَا بَأْسَ بِهِ؛ لَكِنَّ الْوِلَادَةَ أَوْ كَثْرَةَ الْأَوْلَادِ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أُنَظِّمَ النَّسْلَ، بِمَعْنَىٰ: أَنْ أَجْعَلَ امْرَأَتِي تَلِدُ كُلَّ سَنَتَيْنِ مَرَّةً؛ فَهَلْ يَجُوزُ أَوْ لَا؟

---

(١) تقدم تخريجه.

هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَعْزِلُونَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ(١)، وَالْعَزْلُ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَمْنَعُ مِنَ الْحَمْلِ غَالِبًا.(*).

«تَنْظِيمُ النَّسْلِ لَيْسَ بِيَدِ الْإِنْسَانِ، بَلْ هُوَ بِيَدِ مَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورىٰ: ٤٩].

وَقَالَ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ:٥٠].

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي الْعَزْلِ: «**لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَهُ مَا مَنَعْتَهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٩/ ٣٠٥، رقم ٥٢٠٧)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٢/ ١٠٦٥، رقم ١٤٤٠)، من حديث: جَابِرٍ، قَالَ: «**لَقَدْ كُنَّا نَعْزِلُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، وزاد مسلم في رواية: «...، **فَبَلَغَ ذَلِكَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَنْهَنَا**».
وفي رواية لهما: «**كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ**»، وزاد مسلم: «...، **لَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَىٰ عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ**».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ كِتَاب: «تَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَبَيَانُ حُقُوقِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ».

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح: باب ما جاء في العزل، (٢١٧١)، من حديث: أبي سعيد الخدري: أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لي جارية وأنا أعزل عنها وأنا أكره أن تحمل، وأنا أريد ما يريد الرجال، وإن اليهود تحدث أن العزل موءودة الصغرىٰ قال: «**كذبت يهود، لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه**».
والحديث صححه الألباني في «**صحيح أبي داود**»: (٦/ ٣٨١، رقم١٨٨٧)، والحديث =

فَالْأَمْرُ بِيَدِ اللهِ»(١).

«**إِنَّ تَنْظِيمَ النَّسْلِ**: هُوَ الْعِنَايَةُ لِأَسْبَابِ الْحَمْلِ فِي وَقْتِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَضُرُّ الْمَرْأَةَ، وَلَا يُسَبِّبُ لَهَا مَتَاعِبَ كَثِيرَةً، وَذَلِكَ بِأَنْ تَتَعَاطَىٰ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَمْنَعُ الْحَمْلَ فِي وَقْتٍ مَا لِمَصْلَحَةِ الْحَمْلِ، أَوْ لِمَصْلَحَةِ الْمَرْأَةِ، أَوْ لِمَصْلَحَتِهِمَا جَمِيعًا، فَهَذَا يُسَمَّىٰ تَنْظِيمَ النَّسْلِ؛ بِتَعَاطِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ تَنْظِيمِ النَّسْلِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَكُونَ مَرِيضَةً لَا تَتَحَمَّلُ الْحَمْلَ فِي كُلِّ سَنَةٍ، أَوْ يَكُونُ هُنَاكَ أَسْبَابٌ أُخْرَىٰ تَقْتَضِي عَدَمَ حَمْلِهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ يُقَرِّرُهَا الْأَطِبَّاءُ، أَوْ تَكُونُ عَادَتُهَا أَنْ تَحْمَلَ هَذَا عَلَىٰ هَذَا؛ كُلَّمَا خَرَجَتْ مِنَ النِّفَاسِ حَمَلَتْ بِإِذْنِ اللهِ، فَيَشُقُّ عَلَيْهَا تَرْبِيَةُ الْأَطْفَالِ وَالْعِنَايَةُ بِشُؤُونِهِمْ؛ فَتَتَعَاطَىٰ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ حَتَّىٰ لَا تَحْمَلَ إِلَّا بَعْدَ وَقْتٍ؛ كَأَنْ تَحْمَلَ بَعْدَ سَنَةٍ، أَوْ بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ أَجْلِ مُرَاعَاةِ الْأَطْفَالِ، وَتَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ، وَالْعِنَايَةِ بِشُؤُونِهِمْ.

وَهَذَا لَا حَرَجَ فِيهِ إِذَا كَانَ لِمَصْلَحَةٍ مَذْكُورَةٍ؛ بِأَنْ تَكُونَ تَحْمَلُ هَذَا عَلَىٰ هَذَا، فَلَهَا أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ لِيَكُونَ هُنَاكَ فَصْلٌ بَيْنَ الْوَلَدَيْنِ؛ كَسَنَةٍ، أَوْ سَنَتَيْنِ مُدَّةَ الرَّضَاعِ؛ حَتَّىٰ تَسْتَطِيعَ الْقِيَامَ بِالتَّرْبِيَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

=

في الصحيحين بلفظ: «**أَوَإِنَّكُمْ تَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا ذَلِكُمْ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ كَتَبَ اللهُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَّا هِيَ خَارِجَةٌ**»، وفي رواية لمسلم: «...، **فَإِنَّمَا هُوَ الْقَدَرُ**»، وفي أخرىٰ له: «**مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَ شَيْءٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ**».

(١) لقاء الباب المفتوح: لقاء ٢٦: السؤال: ٨.

كَمَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْزِلَ عَنْهَا لِلْمَصْلَحَةِ.

وَهَكَذَا تَعَاطِي بَعْضِ الْأَدْوِيَةِ لِلْمَصْلَحَةِ، وَهَكَذَا إِذَا كَانَ يَضُرُّهَا الْحَمْلُ لِمَرَضٍ بِهَا، أَوْ بِرَحِمِهَا، فَيُقَرِّرُ الطَّبِيبُ الْمُخْتَصُّ أَوِ الْأَطِبَّاءُ أَوِ الطَّبِيبَاتُ الْمُخْتَصَّاتُ بِأَنَّ حَمْلَهَا كُلَّ سَنَةٍ أَوْ كُلَّ سَنَتَيْنِ يَضُرُّهَا، فَقَدْ تَتَعَاطَىٰ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَجْعَلُهَا تَحْمَلُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ أَوْ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَرَضِ»[١].

«فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ تُضْطَرُّ الْمَرْأَةُ إِلَىٰ تَأْجِيلِ الْحَمْلِ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ؛ كَمَرَضِهَا، أَوْ ضَعْفِهَا، أَوْ عَجْزِهَا عَنِ الْقِيَامِ بِحَضَانَةِ أَوْلَادِهَا، فَهَذَا لَا بَأْسَ أَنْ تَتَّخِذَ مَا يُؤَجِّلُ الْحَمْلَ؛ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِرِضَا الزَّوْجِ، أَمَّا الْجَنِينُ إِذَا حَمَلَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ؛ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، لَا يَجُوزُ إِنْزَالُهُ؛ لِأَنَّهُ مُنْذُ كَانَ نُطْفَةً ابْتَدَأَ تَكْوِينُهُ، فَلَا يَجُوزُ إِنْزَالُ الْحَمْلِ مُنْذُ تَكْوِينِهِ إِلَّا إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ؛ لِكَوْنِ الْأُمِّ لَا تَتَحَمَّلُ الْحَمْلَ؛ لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهَا، أَوْ فِي صِحَّتِهَا، أَوْ فِي بَطْنِهَا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَحِينَئِذٍ يَنْزِلُ إِلَىٰ تَمَامِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، أَيْ: إِلَىٰ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِذَا نُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ تَنْزِيلُهُ أَبَدًا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ صَارَ إِنْسَانًا، وَالْإِنْسَانُ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ»[٢].

---

(١) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: نور علىٰ الدرب: حكم تحديد النسل.

(٢) لقاء الباب المفتوح: لقاء ٢٦: السؤال ٨.

«تَنْظِيمُ النَّسْلِ لَا بَأْسَ بِهِ إِذَا دَعَتْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ؛ لِكَوْنِهَا ذَاتَ أَطْفَالٍ كَثِيرِينَ، وَيَشُقُّ عَلَيْهَا التَّرْبِيَةُ، أَوْ لِأَنَّهَا مَرِيضَةٌ، أَوْ لِأَسْبَابٍ أُخْرَىٰ رَآهَا الْأَطِبَّاءُ الثِّقَاتُ، فَلَا مَانِعَ مِنَ التَّنْظِيمِ بِأَنْ تَمْنَعَ الْحَمْلَ سَنَةً أَوْ سَنَتَيْنِ، وَهَكَذَا؛ حَتَّىٰ تَسْتَطِيعَ تَرْبِيَةَ أَطْفَالِهَا، أَوْ حَتَّىٰ يَخِفَّ عَنْهَا الْمَرَضُ.

أَمَّا بِدُونِ حَاجَةٍ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَخْذُ الْحُبُوبِ، وَلَا يَنْبَغِي مَنْعُهُ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا شَرَعَ لَنَا أَسْبَابَ تَكْثِيرِ النَّسْلِ، وَلِأَنَّ الْحَمْلَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ، وَهُوَ يَأْتِي بِرِزْقِهِ، وَفِي تَرْبِيَتِهِ وَالتَّعَبِ عَلَيْهِ أَجْرٌ كَثِيرٌ مَعَ صَلَاحِ النِّيَّةِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ أَخْذِ الْحُبُوبِ وَلَا إِلَىٰ التَّنْظِيمِ إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ وَحَاجَةٌ تَقْتَضِي ذَلِكَ؛ كَكَثْرَةِ الْأَوْلَادِ، وَمَشَقَّةِ التَّرْبِيَةِ، أَوْ مَا يَعْتَرِي الْأُمَّ مِنَ الْمَرَضِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْوَجِيهَةِ؛ سَوَاءٌ كَانَ بِالْحُبُوبِ، أَوْ بِاللَّوْلَبِ، أَوْ بِإِبَرٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ تَنْظِيمِ الْحَمْلِ.

أَمَّا مَنْعُهُ؛ فَلَا يَجُوزُ مَنْعُهُ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَّا لِعِلَّةٍ؛ إِذَا كَانَ الْحَمْلُ فِيهِ خَطَرٌ عَلَىٰ حَيَاةِ الْأُمِّ، وَذَكَرَ الْأَطِبَّاءُ أَنَّ الْحَمْلَ لَوْ فِيهِ خَطَرٌ عَلَيْهَا؛ فَلَا بَأْسَ بِمَنْعِهِ؛ وَإِلَّا فَلَا يُمْنَعُ، وَلَا يَجُوزُ لَهَا تَعَاطِي مَنْعِهِ.

فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَعَاطِي مَنْعِ الْحَمْلِ إِلَّا لِعِلَّةٍ لَا حِيلَةَ فِيهَا، وَهِيَ الْخَوْفُ عَلَىٰ الْأُمِّ مِنَ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الْحَمْلَ فِيهِ خَطَرٌ عَلَىٰ حَيَاتِهَا»[1].

«إِنَّ مَنْعَ الْحَمْلِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنْهُ تَحْدِيدَ النَّسْلِ، بِمَعْنَىٰ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا

(١) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب جمع الشويعر: (٢١/ ٣٨٨، رقم١٧٣).

يَتَجَاوَزُ أَوْلَادُهُ مِنْ ذُكُورٍ أَوْ إِنَاثٍ هَذَا الْقَدْرَ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللهِ ﷻ، وَلَا يَدْرِي هَذَا الْمُحَدِّدُ لِنَسْلِهِ؛ فَلَعَلَّ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ يَمُوتُونَ، فَيَبْقَىٰ لَيْسَ لَهُ أَوْلَادٌ!!

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مَنْعُ الْحَمْلِ لِتَنْظِيمِ النَّسْلِ، بِمَعْنَىٰ: أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ كَثِيرَةَ الْإِنْجَابِ، وَتَتَضَرَّرُ فِي بَدَنِهَا أَوْ فِي شُؤُونِ بَيْتِهَا، وَتُحِبُّ أَنْ تُقَلِّلَ مِنْ هَذَا الْحَمْلِ لِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ مِثْلُ أَنْ تُنَظِّمَ حَمْلَهَا فِي كُلِّ سَنَتَيْنِ مَرَّةً، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ بِإِذْنِ الزَّوْجِ؛ لِأَنَّ هَذَا يُشْبِهُ الْعَزْلَ الَّذِي كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم يَفْعَلُونَهُ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْهُ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ.

وَمَوْضُوعُ تَحْدِيدِ النَّسْلِ أَوْ تَنْظِيمِهِ لِلْخَوْفِ مِنَ الرِّزْقِ؛ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ سُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ ﷻ، وَأَنَّهُ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ خَشْيَةَ الْفَقْرِ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ فِيهِ هَذَيْنِ الْمَحْظُورَيْنِ، وَهُمَا:

* سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ ﷻ.

* وَالثَّانِي: مُشَابَهَةُ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا، وَأَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- إِذَا رَزَقَهُ أَوْلَادًا؛ فَسَيَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابًا مِنَ الرِّزْقِ حَتَّىٰ يَقُومَ بِشُؤُونِ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ وَرِزْقِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَقُولُ: أَنَا لَا أُحَدِّدُ النَّسْلَ أَوْ لَا أُنَظِّمُهُ مِنْ خَوْفِي ضِيقَ الرِّزْقِ، وَلَكِنْ مِنْ خَوْفِ الْعَجْزِ عَنْ تَأْدِيبِهِمْ وَتَوْجِيهِهِم، وَهَذَا -أَيْضًا- خَطَأٌ؛ فَإِنَّ تَأْدِيبَهُمْ وَتَوْجِيهَهُمْ كَرِزْقِهِمْ، الْكُلُّ بِيَدِ اللهِ ﷻ، وَكَمَا أَنَّكَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ اللهِ

-تَعَالَىٰ- فِي رِزْقِ أَوْلَادِكَ؛ كَذَلِكَ -أَيْضًا- يَجِبُ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَىٰ اللهِ ﷻ فِي أَدَبِ أَوْلَادِكَ وَهِدَايَتِهِمْ؛ فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْهَادِي -سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ-، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي.

وَعَلَىٰ هَذَا فَالَّذِي يُنَظِّمُ نَسْلَهُ أَوْ يُحَدِّدُهُ خَوْفًا مِنْ غِوَايَتِهِمْ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَأْدِيبِهِمْ هُوَ -أَيْضًا- مُسِيءٌ لِلظَّنِّ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَإِلَّا فَاللهُ ﷻ بِيَدِهِ الْأُمُورُ.

وَالَّذِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يَفْعَلَ شَيْئًا مِمَّا يُقَلِّلُ الْأَوْلَادَ إِلَّا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ لِذَلِكَ أَوِ الضَّرُورَةُ.

ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ كَثْرَةَ الْأُمَّةِ وَكَثْرَةَ النَّسْلِ مِنْ نِعَمِ اللهِ ﷻ؛ وَلِهَذَا فَشُعَيْبٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ذَكَّرَ قَوْمَهُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وَكَذَلِكَ مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦].

فَكَثْرَةُ الْأُمَّةِ لَا شَكَّ أَنَّهَا سَبَبٌ لِعِزَّتِهَا، وَقِيَامِهَا بِنَفْسِهَا، وَاكْتِفَائِهَا بِمَا لَدَيْهَا عَنْ غَيْرِهَا، وَرُبَّمَا لِكَثْرَتِهَا تَكُونُ سَبَبًا لِفَتْحِ مَصَادِرَ كَثِيرَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوَّلًا بِأَنَّهُ مَا مِنْ دَابَّةٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ الدُّوَلِ غَزَتْ دُوَلًا أَكْبَرَ مِنْهَا وَأَشَدَّ مِنْهَا قُوَّةً بِسَبَبِ فَقْرِ أَفْرَادِهَا؛ لِأَنَّهُمْ صَارُوا يَفْتَحُونَ الْمَعَامِلَ وَالْمَصَانِعَ، وَيُنْتِجُونَ إِنْتَاجًا بَالِغًا؛ لِهَذَا يَجِبُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ تَحْدِيدِ النَّسْلِ أَوْ تَنْظِيمِهِ إِنَّمَا

هِيَ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِنَا بِنَا، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِمَا يَرْمِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلِمَا يَوَدُّهُ مِنْ تَكْثِيرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَتَحْقِيقِ مُبَاهَاتِهِ ﷺ بِهَا الْأَنْبِيَاءَ»(١).

«مَا قَدْ يُفَسَّرُ بِهِ تَنْظِيمُ النَّسْلِ بِأَنْ تَتَعَاطَىٰ الْمَرْأَةُ أَدْوِيَةً تَمْنَعُ الْحَمْلَ بَعْدَ وَلَدَيْنِ، أَوْ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ، أَوْ بَعْدَ أَرْبَعَةٍ؛ هَذَا لَيْسَ بِتَنْظِيمٍ، وَلَكِنَّهُ قَطْعٌ لِلنَّسْلِ، وَحِرْمَانٌ لِلزَّوْجَيْنِ مِنَ النَّسْلِ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْكَامِلَةَ جَاءَتْ بِالْحَثِّ عَلَىٰ تَعَاطِي أَسْبَابِ الْوِلَادَةِ، وَكَثْرَةِ النَّسْلِ لِلْأُمَّةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢). وَفِي لَفْظٍ: «**الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

---

(١) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب للعثيمين: الشريط رقم (٩).

(٢) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: كتاب النكاح: باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، (٢٠٥٠)، والنسائي في «**المجتبىٰ**»: كتاب النكاح: كراهية تزويج العقيم، (٣٢٢٧)، من حديث: مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه.

والحديث صححه ابن حجر في «**فتح الباري**»: (٩/ ١١١)، وكذا صححه لغيره الألباني في هامش «**مشكاة المصابيح**»: (٢/ ٩٢٩، رقم٣٠٩١).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور: (١/ ١٦٤، رقم ٤٩٠)، وأحمد: (٣/ ١٥٨ و ٢٤٥)، وابن حبان: (٤٠٢٨)، والطبراني في «**المعجم الأوسط**»: (٥٠٩٩)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: (٤/ ٢١٩)، والبيهقي في «**السنن الكبير**»: (٧/ ٨١ - ٨٢)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ، وَيَنْهَىٰ عَنِ التَّبَتُّلِ نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ**،...» الحديث.

والحديث صححه بشواهده الألباني في «**إرواء الغليل**»: (٦/ ١٩٥، رقم ١٧٨٤).

فَهَذَا يَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ كَثْرَةَ النَّسْلِ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَكْثِيرِ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَتَكْثِيرِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَيَدْعُوهُ، وَيَسْتَغِيثُ بِهِ، وَيُبَادِرُ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَيَنْفَعُ عِبَادَهُ، فَهَذَا لَا يُسَمَّىٰ تَنْظِيمًا، وَلَكِنَّهُ قَطْعٌ لِلنَّسْلِ؛ فَلَا يَجُوزُ.

وَهَكَذَا تَعَاطِي الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَمْنَعُ الْوَلَدَ إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ أَمْرٌ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا يُشْبِهُ الْقَطْعَ، وَإِنَّمَا يَتَقَيَّدُ ذَلِكَ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ؛ مِنْ مَرَضِهَا، أَوْ مَرَضِ رَحِمِهَا، أَوْ حَمْلِهَا هَذَا عَنْ هَذَا حَتَّىٰ لَا تَسْتَطِيعَ التَّرْبِيَةَ، هَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَقْتَضِي التَّنْظِيمَ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ»[1].

قَالَ شَيْخُ الْأَزْهَرِ الْأَسْبَقُ الشَّيْخُ: جَادُ الْحَقِّ عَلي جَادُ الْحَق رَحِمَهُ اللهُ: «تَنْظِيمُ النَّسْلِ جَائِزٌ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قِيَاسًا عَلَىٰ جَوَازِ الْعَزْلِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا دَامَ الْغَرَضُ مِنْهُ الْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ صِحَّةِ الْمَرْأَةِ مِنْ أَضْرَارِ كَثْرَةِ الْحَمْلِ، أَوْ تَهْيِئَةَ الْجَوِّ الْمُنَاسِبِ لِتَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ تَرْبِيَةً سَلِيمَةً صَحِيحَةً».

وَقَدْ «أَجَازَ فُقَهَاءُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَزْلَ كَوَسِيلَةٍ لِمَنْعِ الْحَمْلِ بِشَرْطِ مُوَافَقَةِ الزَّوْجَةِ، وَعَدَمِ وُقُوعِ الضَّرَرِ، وَإِذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ الْقُدَامَىٰ لَمْ يَذْكُرُوا وَسِيلَةً أُخْرَىٰ؛ فَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَزْلَ كَانَ هُوَ الطَّرِيقَ الْمَعْرُوفَ فِي وَقْتِهِمْ وَمَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يَمْنَعُ قِيَاسَ مَثِيلِهِ عَلَيْهِ

---

(١) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: نور علىٰ الدرب: حكم تحديد النسل.

مَا دَامَ الْبَاعِثُ عَلَىٰ الْعَزْلِ هُوَ مَنْعُ الْحَمْلِ، فَلَا ضَيْرَ مِنْ سَرَيَانِ إِبَاحَةِ مَنْعِ الْحَمْلِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ حَدِيثَةٍ تَمْنَعُهُ مُؤَقَّتًا دُونَ تَأْثِيرٍ عَلَىٰ أَصْلِ الصَّلَاحِيَةِ لِلْإِنْجَاب.

لَا فَرْقَ إِذَنْ بَيْنَ الْعَزْلِ بِاعْتِبَارِهِ سَبَبًا وَبَيْنَ وَضْعِ حَائِلٍ يَمْنَعُ وُصُولَ مَاءِ الرَّجُلِ إِلَىٰ دَاخِلِ رَحِمِ الزَّوْجَةِ؛ سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْحَائِلُ يَضَعُهُ الرَّجُلُ أَوْ تَضَعُهُ الْمَرْأَةُ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا كَذَلِكَ وَبَيْنَ أَيِّ دَوَاءٍ يَقْطَعُ الطَّبِيبُ بِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْحَمْلَ مُؤَقَّتًا، وَلَا يُؤَثِّرُ فِي الْإِنْجَابِ مُسْتَقْبَلًا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ تَنَاوَلَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ طُرُقًا لِمَنْعِ الْحَمْلِ غَيْرَ الْعَزْلِ، وَأَبَاحُوهَا قِيَاسًا عَلَىٰ الْعَزْلِ، وَنَصَّ فُقَهَاءُ الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ عَلَىٰ إِبَاحَةِ مَا يُؤَخِّرُ الْحَمْلَ مُدَّةً.

عَلَىٰ هَذَا يُبَاحُ اسْتِعْمَالُ الْوَسَائِلِ الْحَدِيثَةِ لِمَنْعِ الْحَمْلِ مُؤَقَّتًا، أَوْ تَأْخِيرِهِ مُدَّةً؛ كَاسْتِعْمَالِ أَقْرَاصِ مَنْعِ الْحَمْلِ، أَوِ اسْتِعْمَالِ اللَّوْلَبِ، أَوْ غَيْرِ هَذَا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَبْقَىٰ مَعَهَا الزَّوْجَانِ صَالِحَيْنِ لِلْإِنْجَابِ؛ بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْوَسَائِلَ أَوْلَىٰ مِنَ الْعَزْلِ؛ لِأَنَّ مَعَهَا يَكُونُ الِاتِّصَالُ الْجِنْسِيُّ بِطَرِيقٍ طَبِيعِيٍّ، أَمَّا الْعَزْلُ؛ فَقَدْ كَانَ فِي اللُّجُوءِ إِلَيْهِ أَضْرَارٌ كَثِيرَةٌ لِلزَّوْجَيْنِ، أَوْ لِأَحَدِهِمَا عَلَىٰ الْأَقَلِّ».

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُرْزَقْ وَلَدًا؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي دُعَاءِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ ﷻ الْوَلَدَ الصَّالِحَ، وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ؛ فَقَدْ أَصْلَحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمَرْأَةَ الْعَقِيمَ الَّتِي لَا تَلِدُ، وَرَزَقَ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ الَّذِي يُظَنُّ أَلَّا يُنْجِبَ.

وَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ بِالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَابْتَهَلَ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِدُعَاءِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَعَسَىٰ أَنْ يَمُنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْوَلَدِ الصَّالِحِ، وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ.(*).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَنَا جَمِيعًا بِحِفْظِهِ الْجَمِيلِ، وَأَنْ يَحْفَظَ أَوْلَادَنَا وَأَوْلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَسُوءٍ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*/٢).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ كِتَاب: «تَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَبَيَانُ حُقُوقِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصِّحَّةُ الْإِنْجَابِيَّةُ بَيْنَ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ وَحَقِّ الطِّفْلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٥هـ| ٥-١-٢٠٢٤م.

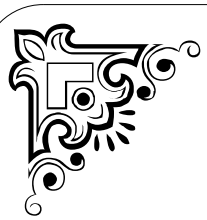

الفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ..... ٣

وَلَكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ..... ٤

فَضَائِلُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَثَمَرَاتُهُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ..... ٨

الْمَثَلُ التَّطْبِيقِيُّ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ..... ٤٥

الْأَخْلَاقُ مِنْ أَعْظَمِ رَكَائِزِ بِنَاءِ الْحَضَارَاتِ..... ٥٧

ضَرُورَةُ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ وَتَحْصِيلِهِ..... ٦٦

*** الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ**..... ٦٨

نِعْمَةُ الذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ..... ٦٨

مِنْ ثَمَرَاتِ الذُّرِّيَّةِ وَفَوَائِدِهَا..... ٧٥

تَنْظِيمُ النَّسْلِ فِي مِيزَانِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ..... ٧٨